A.U.B. LIBRARY

قناصة الملوك

او

كيف تصير الفتاة أميرة

822.33
S527msA

وهي مقتبسة

من رواية شكسبير الشهيرة باسم

MEASURE FOR MEASURE

بقلم حنا خباز

عنيت بطبعها

مجلة الاخاء

حقوق الطبع محفوظة لمقتبسها

39345

مطبعة الشمس بشارع كلوت بك لصاحبها زكي رزق الله

كيف تصيرين أميرة ؟

مصر في ٢٥ - ٣ - ١٩٣٠

عزيزتي !

لا شك عندي في أنك تودّين أن تكوني أميرة ، فهل تعرفين كيف يمكنك ذلك ؟ للامارة طريق سلطانية تسيرين فيها فتحصلين على المرام ، ومُرادي بهذه الحكاية الجميلة أن اشجعك على السير في هذه الطريق ، وأن تتخذي «ايزابلا» بطل هذه الرواية مرشدة ومثالا لك فتفوزي كما فازت . ذلك ما قصده شكسبير مبتكر الفكرة التي بنيت عليها حكايتي هذه ، وذلك ما يقصده صاحب هذا القلم . فاننا في هذا الشرق نحتاج ، ليس الى كتّاب ومؤلفين ، بل الى أميرات . واذا لم تتحرك اقلام المؤلفين في خلق هؤلاء الأميرات ، فلا أرى لتلك الأقلام كبير قيمة وشأن .

فهل تقرئين هذه الحكاية بهذه النية ؟ ؟

...

مقدمة

الانسان افضل مواضيع البحث التي يطرقها الانسان . وأسمى مباحث الانسان وأنفعها وأشرفها ما اختص منها بالخلق الحميد ، ضامن خلود الانسان وسعادته. الى هذا المطلب السامي تشد الرحال. وبعروته الوثقى تناط الآمال. وقد أثبت الاختبار ان المثل أبلغ في النفس من الوعظ . لان المثل — حكايةً أو تمثيلا — يريك الحقيقة بصورة محسوسة ، يريك العواقب المرغوب فيها لتتطلّبها ، أو المرغوب عنها لتتجنبها . فاذا خلت الرواية ، أو الحكاية ، من غاية عملية كهذه ، اغراء أو تحذيراً ، كانت لغواً تراد لمجرد التسلية وقتل الوقت. والروائيون الذين بلغوا أوج الفن، كشكسبير وبرناردشو واضرابهما، لا تنحصر مساعيهم في اللهو والتسلية ، بل يسوقون جهودهم لأغراض سامية يستلزمها سير الاجتماع البشري الى الامام . وأوقع الروايات في النفس ما وقفت فيها الفتاة بين عاملي الامانة والحب ، أو بين العاطفة والشرف . ولا سيما اذا جاءت النتيجة مطابقة لشعور الفطرة في ماهية العدالة ، وانجلت عن مجازاة الذين أحسنوا صنعاً خير جزاء . فغدوا بذلك مثالا حسناً يحث القراء على انتهاج المناهج القويمة لبلوغ أسمى الغايات

من هذا النوع رواية شكسبير ، التي اقتبست منها هذه الحكاية « قناصة الملوك »

وبطل هذه الحكاية « ايزابلا » التي وقفت احرج موقف، بين التخلي

عن شقيقها أو اباحة عرضها . فجوزيت جزاء حسناً ، لانها آثرت الشرف على حياة الشقيق . وفصول هذه الرواية تأخذ بمجامع القلوب . فقد مثلها جوق اتكنز الانجليزي في الاوبرا المصرية ثلاثاً سنة ١٩٢٨ ، وحضرتها مرتين ، وقال لي أحد اصحابي ، الذي حضرها ، انه في أثناء التمثيل بكى اربع مرات .

لفت نظري الى هذه الرواية ، أولا ، الصديق المحترم السيد رفلة ملوك سنة ١٩٢١ . فقد اسعدني الحظ بالاجتماع به في مدينة قرطجنه (كرتاهينا) بكولمبيا . فتفضل عليّ بالرعاية وحدثني كثيراً ، في مواضيع جمة ، أخص منها بالذكر شكسبير . وقص عليّ حكاية هذه الرواية . فاحببتها ، وترجمتها تمثيلية . وحضرت تمثيلها مرتين لأرى وقعها في النفوس ، مسرحياً . ثم رغب اليّ حضرة الاستاذ الفاضل سليم افندي قبعين ايرادها بصورة حكاية لافادة قراء مجلته — الاخاء — فاستخرت الله في ايرادها ، نزولا عندارادته ، وانا أرجو ان تتحقق بها الآمال في افادة قرائها . راجياً من اخواني الأدباء والمؤلفين غض الطرف عن مواطن القصور ، لان غرضها الاخلاقي شافعي لدى حضراتهم ، والكريم من عذر ؟

مصر ١٩٣٠ — مخايل

شكسبير

قال كارليل الانجليزي الشهير في كتابه « الآلهة » ما معناه :—

« لو خُيرت بين شكسبير والامبراطورية الهندية لآثرت شكسبير . لأن الهند ليست لنا ، وسنتخلى عنها عاجلا أو آجلا ، أما شكسبير فهو لنا ، ثروتنا الادبية ، وسيظل لنا ما ظللنا :

من عرف قدر كارليل قدر شكسبير . ولا اراني ارتكب الشطط اذا قلت ان شكسبير عقدة فخار اعظم الأمم التي عاشت في كل الازمان . هي أمة الانجلوسكسون المتفرعة في اسكوتلاندا وانجلترا وكندا والولايات المتحدة وجنوبي افريقية واستراليا ونيوزيلاندا . هذه الأمة ، أحييناها أو شنأناها ، نقر لها بالفضل . وبأنها قد ابرزت الى حيز الوجود عشرات من العباقرة في كل فن وفي كل علم ، وفي كل فرع من فروع السياسة والآداب . ولكنها لم تبرز إلا « شكسبير » واحداً . فقد تفرّد هذا في سماء الشهرة في فرع الرواية التمثيلية . فكان بين اولئك الاقطاب كالبدر بين النجوم . مرّ على شكسبير ثلاثة قرون ، ولا يزال زينة المسارح في كل الاقطار وكل اللغات ، فهو الخالد بآثاره . وما تلك الآثار الا ثمرات روح طيبة ، ومجالي جمالها . وقد قيل أن شكسبير يتكلم بكل لسان . اي انه يضرب على وتر حساس في كل قلب ، والشعور واحد في كل لغة وفي كل أمة . فهو يخاطب الشعور كما يخاطب العقل ، فانفتحت له أبواب القلوب ، وأحلّه الاقوام محله من من الاعتبار والاحترام

أمامي مجموعة رواياته وهي ٣٧ رواية تشغل ١٤٦٧ صفحة كبيرة . تليها بعض

اشعار من نظمه تشغل ١٠٥ صفحات. ولا أظن ان كثيرين من أبناء العين والضاد قرأوا كل تلك الصفحات. فللذين قرأوها واستوعبوا اغراض واضعها تحيتي واحترامي. وللذين لم يفوزوا بهذا المطلب النفيس أقدم هذه الحكاية، وبها اكشف عن ناحية من مناحي عظمة شكسبير وجمال نفسه. وقد سميتها قناصة الملوك تطبيقاً للاسم على موقف ايزابلا بطل الرواية. التي اقتنصت انجلو بجمالها وفنسنتو بفضائلها

وقد يرغب القارىء العربي ان يعرف من هو شكسبير. ومتى وأين عاش، وماذا كان منه في حياته، وكيف تدرّج الى اوج الشهرة. فلأجل سد هذا الشوق في نفس القارىء، اورد الترجمة التالية ملخصة عن مقدمة مجموعته المشار اليها.

حياة شكسبير

ولد وليم شكسبير في شهر ابريل سنة ١٥٦٤ ولا نعلم في أي يوم من الشهر ولد. ولكن القوم يجارون اسطورة تقول انه ولد في مثل اليوم الذي مات فيه، أي ٢٣ ابريل. وقد جاء في سجل كنيسة الثالوث بمدينة «ستر تفرد» خبر تنصيره بهذا النص: «تنصر وليم بن جون شكسبير في ٢٦ ابريل ١٥٦٤»

اعطى شهر ابريل الأمة الانجليزية نخبة شعرائها ونابغة روائييها. ولكنه كان شهر كارثات وخطوب عليها اذ تفشى الطاعون في البلاد الانجليزية حتى اقفرت شوارع لندن من العابرين. وهبط عدد سكان ستر تفرد من ١٤٢٨ نفساً الى ١١٩٠

وفي ٣٠ اغسطس من ذلك العام، والوباء في اوج سؤدده، عقد مجلس

سترتفرد البلدي جلسة لعضد الفقراء . وقد ورد اسم جون شكسبير في قائمة التبرعات مرتين .

لما اكمل وليم السنتين من العمر ولد أخوه جلبرت . وفي الخامسة من عمره ولدت أخته حنة ، وفي العاشرة ولد أخوه ريشارد، وبه ختمت العائلة

درس وليم في مدرسة سترتفرد الابتدائية . وحصل بعض اللاتينية واليونانية . وكانت هاتان اللغتان تدرسان في كل المدارس في ذلك الزمان. ويوجد اليوم ، في المتحف البريطاني مقعد يزعمون انه المقعد الذي كان يجلس عليه شكسبير في المدرسة .

جون شكسبير — والد وليم — ابن رجل فلاح من سنترفيلد . جاء سترتفرد سنة ١٥٥١ ، ويقولون انه كان لحاماً وانه يشتغل ببيع الصوف . وصحب ذلك ، كثيراً أو قليلا ، اشتغاله بالزراعة . ومن الثابت انه اشتغل في شبابه ، بصنع القفازين (الكفوف) ، فقد ورد ذكره في محكمة سترتفرد سنة ١٥٥٦ ، مشكواً من توماس سيث الدائن له بثمانية جنيهات و١٠ شلن وقد أسماه الكاتب « جون شكسبير صانع القفافيز »

تزوج جون شكسبير سنة ١٥٥٧ من ماري اردن صغرى بنات اردن من وليمكط وروكشير ، فاعطته (صداقا) قطعة أرض في اسبيز ، مساحتها ٥٠ فداناً من الارض السليخ ، بها ستة مروج ، ومسرح للمواشي ، وهي ثروة تذكر في ذلك الزمان ، وولدت له ٣ ذكور وأنثى واحدة، اكبرهم وليم

لما بلغ وليم الخامسة (١٥٦٩) صار أبوه جون رئيس المجلس البلدي في سترتفرد ، وكان مجتهداً ومحبوباً ، وهو الذي شجع التمثيل في بلدته ، قال « ويليس » المولود سنة ١٦١٦ :—

كانت العادة في ذلك الزمان انه حين يجيء جوق تمثيل الى بلدة ما ، يتوجه تواً الى رئيس المجلس البلدي (المايور) ويخبره رعاية اي سيد هو ، ليحصلوا منه على تصريحة بالتمثيل في تلك البلدة ، فاذا سر الرئيس منهم ، أو اذا اراد مجاملة منهم في رعايته ، ضرب لهم موعداً للتمثيل في قاعة المجلس البلدي ، يحضرها أي شاء مجاناً ، ولكن الرئيس ينفحهم بمبلغ من المال حسب مقدرته وسماحة نفسه . ويسرنا أن نعلم ان جون شكسبير كان اول من شجع التمثيل في ستر تفرد

ظل جون في المجلس البلدي الى سنة ١٥٨٦ ولكنه بعدها فترت همته في الحضور ، لان تلك السنة كانت نقطة تحول في مركزه المالي ، وماتت ابنته حنة

وكان وليم قد بلغ الرابعة عشرة ، فاخرجه والده من المدرسة لكي يساعده في العمل ، واننا نأسف شديد الأسف ، لان ذلك حال دون نبوغه باللغة اللاتينية ، ولا يمكننا ان نتتبّع خطوات وليم بالدقة بعد خروجه من المدرسة . قال قسيس الابرشية وهو في التمانين من العمر ، سنة ١٦٦٣ لزائري ضريح وليم : « انه كان لحاماً » : وقال جون اوبري : « كان والد وليم شكسبير لحاماً » ، واخبرني جيرانه انه عمل مع والده وهو فتى ، ولما ذبح اول ذبح عمل حفلة ، قام فيها خطيباً : وهنالك ما يبرر تصديقنا حكايات كهذه . قال ادمند ملون — ولكن بدون سند كاف — ان شكسبير كان كاتباً في المحكمة . وقال اوبري انه علم في مدرسة القرية

والذي نعلمه انه كان فتى ذكيّ الفؤاد ، خلو الشمائل ، لوذعياً . ونراه في مطلع الشباب يمثل دور العاشق الواله ، كالبركان الثائر ، ينفث بدل الحمم

الذائبة ، الأناشيد الغرامية . وكل فتى متوقد الذهن ، ذي صبغة شعرية ، كانت حبيبته اكبر منه سناً وهي حنة هثوي ، وهي اول من بث في حنايا ضلوعه روح الغرام ، فنظم فيها باكورة قصائده ويقال انها بارعة في الجمال ، وان والدها هنري هثوي مزارع مثر ، وله مزرعة جميلة فى شوتري

وكانت حفلة زفافها على شاعر الدنيا فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٥٨٢ ، وهو في الثامنة عشرة ، وهي في الخامسة والعشرين ، زمن غضاضة الصبا فيهن ، واليك صورة تصريح زفافه الرسمية : —

« قد أذن بقران وليم شكسبير وحنة هثوي بعد الاعلان مرة واحدة ، بكفالة فوكس صندلز وجون ريكاردصن ، تحت مبلغ ٥٠ جنيهاً لضمان العواقب لدى أسقف الابرشية » . أعطيت هذه الوثيقة في ورسستر في ٢٨ نوفمبر سنة ٥٨٢ » : فبرحت حنة بيتها القروي ، وصارت قرينة وليم شكسبير . ولا نعلم شيئاً عن مهنته ومركزه المادي يومذاك ، ولكننا نعلم انه وزوجه عكفا على خدمة البيت ، وكانا الى زمان غنيين في حب احدهما الآخر ، ولا غرابة في كون حنة حسناء كما كانت محبوبة ، لانا لسنا نظن ان وليم شكسبير ، ذا النظر الثاقب في كنه البشرية ، الدقيق الشعور والسريع الخاطر ، يخطيء في انتقاء الحبيبة في أول مراميه

لقد قيل ان حياته العائلية لم تكن سعيدة . لانه من سنة ١٥٨٥ الى سنة ١٥٩٦ قلما حظي برؤية زوجه وبنيه ، والاشارة الى ذلك في رواية «اسبوعين» فصل ٢ مشهد ٤ وفي رواية العاصفة فصل ٤ مشهد أول .

ولدت حنة له بنتين وصبياً في ثلاث سنين . الاولى سوسان سنة ١٥٨٣

والتوأمان همنت وجوديث سنة ١٥٨٥ تنصروا كلهم في كنيسة سترتفرد

روي ان شكسبير سرق جنينة السر توماس لوسي . كتب ذلك ريشارد ودافيس ورو ووليم اولدز ، ولكن اوبري أول مؤرخي الشاعر العظيم لم يذكر تلك الحادثة. قال «رو» : كان شكسبير ، لسوء الحظ ، ميالا لمعاشرة الشبان. فصحب كل جماعة منهم، وكان بعضهم لصوصاً ، فصحبهم في سرقة جنينة السر توماس لوسي من شاركلوت ، قرب سترتفرد . فاحل به المذكور صارم القصاص، فانتقم منه بانه هجاه. فضوعف القصاص، فهجر العائلة والشغل ، وذهب الى وروكشير مدة ثم جاء لندن : ويتفق المؤرخان ديفز ورو في كل نقط الحادثة .

الى لندن ذهب وليم شكسبير لاول مرة سنة ١٥٨٦ ، هرباً من اضطهاد السر توماس لوسي — على قول بعض مؤرخيه — وقد يكون الحامل له على ذلك رغبته فى اعالة عائلته ، ومساعدة والده بوفاء ديونه المتراكمة . فقدسيق والده الى المحكمة ، وزج في السجن بسبب ديونه. فنزعوا عنه برنس المشيخة، لعجزه عن استئناف الحضور . ويجب ان يكون ذلك قد حدث قبيل ذهاب وليم الى لندن أو بعيده . وهنالك أساس للاعتقاد ان وليم ترك زوجه وأولادها، وذهب الى لندن ليتمكن من اعالتهم. ويجب ان نذكر انه مازال يومذاك شاباً . ومن عهد قريب ادرك رشاده (سن الحادية والعشرين) فقد كان عمره يوم جاء لندن ٢٣ ربيعاً

وقد يكون الممثلون معارف وليم الاوحدين في لندن . فقد عرفهم في سترتفورد ، وكان والده يحسن رعايتهم. ولاشك في انه كان يرحب بهم ويخالطهم في ذلك الحين . ويتفق جميع مؤرخيه انه كان يرغب في الانخراط

في سلك الممثلين . وانه دخل المسرح « خادماً » وليس بيدنا بيان في أين حل في لندن ، وماذا عمل حال وصوله . ولكن أخاه ادمند كان ممثلا ومن الممكن ان يكون قد ساكنه

وواضح انه نجح في التمثيل سريعاً ، وكان دخله وافراً من التمثيل ومن مبيع رواياته واشعاره . وللحال صار مساهماً في نادي مسارح « بلاكفريرس » وعلى من يهمه درس المسرح في ذلك العصر ان يطالع جملة بقلم الدكتور ك . و . ولّص نشرها في جريدة التيمس الانجليزية بتاريخ ٢ و٤ اكتوبر سنة ١٩٠٩ . فانها تلقي نوراً على حياة وليم شكسبير المسرحية

وكل الدلائل مجمعة على اضطرام نار حب العائلة في قلب وليم . وقيل انه لما كان مقيما في لندن كان يقضي قسما من كل عام في سترتفرد ، مع زوجه وأولاده . ولما كانت عائلة شكسبير مفلحة في كل أعمالها دهمها أليم المصاب بموت همنت وحيد وليم في ١١ اغسطس سنة ١٥٩٦ . والمظنون انه بسبب هذا الولد كان والده قد طلب استرداد برنس المشيخة (ليورثه له) واستلمه بعد موته سنة ١٥٩٩

واثرى وليم في الثالثة والثلاثين من عمره سنة ١٥٩٧ . وابتاع اكبر بيت في سترتفرد . ورتبه حسب ذوقه ، واسماه « نيوبلايس » — المكان الجديد — . وساعد والده في استرداد املاكه في اسبيز . وهي التي جاءت بها والدته عروساً .

وظل وليم يوالي زيارة لندن حيناً بعد حين . وكان يجدد تأثيث المسرح مرتين كل عام . ويقال ان اواصر الصداقة بينه وبين بن جنصن بدأت كما يأتي : قدم بن نسخة منقحة من روايته « لكلٍ مزاجه » لجوق

التمثيل في مسرح بلاكفريرس ، الذي كان وليم أحد مساهميه ، فرفضوها. ولحسن الحظ تدخل وليم في الأمر ، وقرأ الرواية ، فأثنى عليها أجل ثناء واجاز تمثيلها . وسجل اسمه في رأس قائمة الممثلين فيها. وانه أخذ دور « نوال القديم » . ويزعمون ان وليم كان يجتمع ببومونت وبين جنصن في مرميد تفرن في بيرد ستريت ورأس بوار في إيستشب خالد الذكر في رواية هنري الرابع

يقول اولدز في نسخته المجموعة في حياة شكسبير ، استناداً الى بوب: ان شكسبير كان يأوي الى فندق في كرون إن ، في اكسفرد في ذهابه الى لندن، وفي ايابه منها ، وكانت ربة المكان بارعة في الجمال ذكية الفؤاد ، وزوجها جون رافنانت (الذي صار بعد ذاك رئيس المجلس البلدي) مع امرأته شديد الولع بمعاشرة وليم شكسبير، وان ابنهما ول ، وهو دون العاشرة، كان شريك والديه في حب شكسبير والولع به ، فكان يطير من المدرسة كالبرق ، حالما يبلغه خبر قدومه ، رغبة منه في ملاقاته ومحادثته ،

تتجلى محبة شكسبير لوطنه في كل رواياته ، فالطيور المغردة على مسارحها ، والازاهر الفياحة في خلال سطورها ، هي من نبتات ذلك الوطن السعيد . ويغلب استعماله في رواياته الاسماء التي الفها في اسرته وفي جيرته . فان « بردولف » و«فولن» و«فورد» و« هرن » و« بايج » معروفة في ستر تفرد اما ايزابلا بطل الرواية المعروفة باسم كيل بكيل (Measure for measure) — وهي موضوع هذه الحكاية — فيظن انها احدى سيدات أسرة شكسبير ، جاء في سجل « سانت حنة » الذى طبع قسم منه في ترجمة شكسبير بقلم « هول ول فيليب » ما نصه : — « في سنة ١٩ لملك هنري السابع — صلوا لاجل نفس ايزابلا شكسبير — »

وقد رويت قصص شتى عن شهرة شكسبير في البلاط الانجليزي ، وكانت الملكة اليصابات الشهيرة يرتاح قلبها كثيراً لمشاهدة تمثيله ، فلما كان يمثل رواية هنرى الرابع ، كانت الملكة وراء الستار ، وفيما هو يتلو أشعار الرواية عن لسان الملك قامت الملكة اليصابات ، ومرت في عرض المسرح فوقع قفازها من يدها ، فبادر وليم والتقطه قائلا : —

ولئن عرجت الى مهم سفارة فقفاز ابنة عمنا الهياني

وكان الشعر مطابقاً الاشعار التي كان يتلوها في الوزن والقافية ، فسر الملكة منه ذلك سروراً عظيما. ويمكن املاء مجلد ضخم بما كتب في هذه الفترة في مديح شكسبير من الاغاني والاشعار . . فقد عشقه كثيرون من الادباء والناظمين ، ولقد أصاب بن جنسن كبد الحقيقة بقوله: « اني أحب المرء الذي هو في هذا المبلغ من الهيام »

وقد وصف شكسبير شعراء زمانه كمخائيل دريتن ، وليونارد وكز ، وجورج بشمن ، ونثنائيل فيلد ، وجون مارستن ، بأرق لهجات الحب ، فنعتوه « بالانسان » شكسبير ، وبـ « ول الحلو » (ول عندهم تصغير وليم تحبباً) و « بطة آفون » و« وليم الحنون » ، ومدحه الامراء والاعيان ، وقرظه الشعراء والادباء ، واحترمه الممثلون ، واعتبره المواطنون . وفوق الكل كان سعيداً ببيته البديع « نيوبلايس » وازدان بالثراء مع الفن

فتزوجت ابنته الكبرى سوسان بالدكتور جون هول ، طبيب ستر تفرد سنة ١٦٠٧ ، ومولودتها هي الحفيدة الوحيدة التي رآها الشاعر من ذراريه ، واسمها اليزابث

لما بلغ شكسبير الاربعين عكف على اقتناء الاملاك في ستر تفرد وفي

جوارها ، فاشترى سنة ١٦٠٢ حديقة تجاه «نيو بلايص» ، وعمل سنة ١٦٠٥ اكبر صفقة عملها الى ذلك الحين ، بدفعه ٤٤٠ جنيهاً لراف هوبناد عن رسوم اعشار ستر تفرد ، وهذه الوثيقة محفوظة في المتحف البريطاني

واشترى بيتاً في بلاكفريري سنة ١٦١٢ — ١٦١٣ من هنري ووكر ، مجاوراً الشارع الممتد الى بدل هورف (قرب المكان المعروف اليوم بساحل ارلندا) وقد أدخل قسم منه في مكتبة المدينة

قبلما بلغ وليم شكسبير الثامنة والاربعين مات والده واخوته جميعهم ، ودفنوا كلهم في ستر تفرد ، الا اصغرهم ، ادمند الذي مات سنة ١٦٠٧ ، ودفن في كنيسة المخلص القدوس ودعي « ادمند الممثل » فعري شكسبير من الآل كغصن الخريف ، ولم يبق من ذكور عائلته أحد غيره

وخف اكتراثه بالمسرح تدريجاً من سنة ١٦١١ ، وعكف على حياة العزلة . لكن محبته في قلوب معاصريه كانت بازدياد . ولنا شروح ضافية عن أيام شكسبير الاخيرة ووقائع وفاته . وقد حفظ ذلك في يومية القس جون وارد قسيس ستر تفرد من سنة ١٦٦٢ — ١٦٦٨ وجدت هذه اليومية في مكتبة الجمعية الطبية بلندن ، ونسخها ك. ا. سفرن سنة ١٨٣٩ . وهي تشتمل على حوادث سنة ١٦١١ الى ١٦٦٣ ومما فيها ما يأتي :—

سمعت ان شكسبير كان نبيهاً بطبيعته ، مع خلوه من الفن خلواً تاماً وقد مارس التمثيل منذ شبابه ، لكنه في شيخوخته سكن ستر تفرد ، وكان يجهز المسرح بروايتين كل عام ، وكان دخله من ذلك عظيما جداً ، حتى انه صار ينفق الف جنيه سنوياً

وكأنه شعر بدنو الأجل ، فصار يهتم بالمستقبل ، وكتب وصيته الأخيرة

في ٢٥ مارس سنة ١٦١٦ وهو في تمام صحته وقوة ذا كراته . وبعد اسبوعين شغله زفاف كريمته الصغرى جوديت على كويني الخمار في سترتفرد في ١٠ فبراير . وهي في الثلاثين من عمرها وعريسها في السابعة والعشرين وربما حضر الفرح بن جنصن وميخائيل دريتن . ويمكننا ان نتصور افراح الجماعة فى « نيوبلايص »

ويظهر مبلغ التأثير بموت رب العائلة فجأة على الأثر اي بعد شهرين . وذلك فى ٢٣ ابريل سنة ١٦١٦ وهو اول يوم فى الثالثة والخمسين من عمره ولا نعلم سبب موته ، وقد يكون شيء من الحق في القول المتواتر الذي حفظه جون وارد . وربما لزم فراشه الدكتور جون هول صهره الاول .

ودفن في ٢٥ ابريل بجانب الجوار الشمالي من مذبح كنيسة الثالوث الاقدس في سترتفرد . وكتب في سجل وفاته ما يأتي : —

— : « ٢٣ ابريل سنة ١٦١٦ ول شكسبير :—

بعد هذه الفذلكة التاريخية نتقدم لحكاية قناصة الملوك

الفصل الاول

(١) فينا والدوق

كان في فينا ، في سالف الزمن ، دوق يدعى فنسنتو . وكان حاكما عادلا لكنه حنون القلب . فلم ينفذ حكم الاعدام في البغايا والفاحشين ، الذين كانت الشريعة تقضي باعدامهم . فكثرت في دوقيته الفحشاء والسفاح ، ولا سيما في فينا العاصمة . وعلا تذمر الكهان والوالدين ، مما آلت اليه الأحوال . فضاق الدوق ذرعاً ، ورغب في وضع حدٍّ لتلك الحال . لكنه رأى ان مفاجأة الناس بالبدعة قد يذعرهم ، وان كان ذلك في تطبيق القوانين . فجعل يفكر في اتباع وسيلة بها ينفذ القانون دون احداث سجس في الشعب . لانه تصور وليس بدون أساس ، انهم قد يقولون ان للدوق على العرش زماناً هذا قدره فما الباعث الآن على هذا الاحداث ؟ ولا سيما وانه قد علم بان الفحش والبغاء كاد يعم المدينة . حتى قال أحد الموظفين اذا رمت استئصال الفحشاء فعليك ان تقضي باعدام جميع سكان فينا . ومع ما في هذا القول من المبالغة فهو يصور لنا شعور الناس يومذاك ، اذا لم يصور لنا حقيقة الواقع أدبياً . فكان هم الدوق ان يوفق الى طريقة بها يطبق القانون — باعدام الفواحش — دون خراب فينا . فاهتدى الى الوسيلة التي كان ينشدها ، وهي أن يتغيب عن العاصمة مدة ، ويوعز الى نائبه ان ينفذ القانون . فلا يشعر الناس باغبراز خاطر على الدوق . وحين يعود يكون الطريق قد فتح امامه ، وقد الف الناس تطبيق المادة . فلا يستغربونها من الدوق . وكان لسموه مع ذلك غرض آخر في التغيّب ، كما سنبين ذلك في الختام

(٢) انجلو واسكالوس

وكان للدوق مستشار ، وهو كاتم اسرار الدولة ، ويدعى « اسكالوس » وهو رجل وقور حكيم ، خبير في الشرائع ، بصير في العواقب ، عرف كنه الطبع البشري ، وفطر على احترام أرباب القدر . كما أنه ألف الأحكام ، فكان تصرفه وكلامه طبق مقتضى الحال .

وكان للدوق ابن عم يدعى انجلو ، وهو شريف متدين الى حد التقشف وهو صارم في ضبط النفس وقمع الهوى حتى غدا مضرب الأمثال . وقال فيه اسكالوس المستشار العظيم قولا لم ينكره عليه الدوق وهو : —

« اذا كان في فينا رجل واحد أهل للثقة وللنيابة عن سمو الدوق فذلك الرجل هو اللورد انجلو »:

هذه كانت منزلة اللورد انجلو في عيون أرباب المناصب العالية . وهذه كانت أوصافه الاجتماعية وصبغته الروحية . فلما عزم الدوق على ما عزم عليه مما اسلفنا ، أراد أن يوليه نائباً عنه ويفوض اليه الأمر . فاستدعاه اليه وقبلما جاء شرع الدوق في مخاطبة المستشار اسكالوس بما يأتي : —

يا اسكالوس الحكيم ! :

لما كنا عالمين بتفردك في استكناه حاجات البلاد . وعندك العلم الكامل بطبائع أهليها ، ومجال عواطفهم ومنازعهم . رأينا من الواجب مكاشفتك بما عولنا على اجرائه في القريب العاجل . فهنالك حاجة ماسة لتغيبنا عن فينا حيناً من الزمن . فيلزمها نائب يتقلد الأحكام في غيابنا ، ويعتلي المقام الذي لا نبيحه إلا لمن استحق ثقتنا التامة . فنقلده هيبتنا ، ونزوده محبتنا ، ونوشحه

جلالنا ، ونطلق يده في الحكم . فما رأيك بابن عمنا انجلو؟» . ولما قال الدوق ذلك كان انجلو قد وصل . فواصل الدوق كلامه قائلا يخاطب انجلو : —

« يا انجلو أنت عالم أن السموات لا تسبغ علينا المواهب لنخفيها طي الصدور ، أو لنحصر مفاعيلها في حدود شخصياتنا ، بل لنخدم بها بني الانسان فنكون كالكواكب السارية في قبة الفلك ، وكالمصابيح المشعشعة أنوارها في لمة الدجى . فانها لا تنير لذاتها ، ولا تخفي شيئاً من بهائها ، بل تجود به على العالمين . فهي كالاهة الحرص التي تجود بالخيرات على البرايا ، ولا تفرّط بكبيرة أو صغيرة . النفوس خافية في صدور الرجال يبديها العظيم من فعالها . كأمنا الطبيعة التي تعلن بجاليها الفائقة الاحصاء » .

على هذا النحو يأخذ الرجال مقامهم بين الأقران ولهم في تاريخ الأدهار صفحة من المجد خالدة . فقد أولياك الملك في مكاننا ، ونحن على أتم الثقة بانك عنوان العدالة ومثال الاستقامة الأعلى . ونوصيك أو نفوض اليك انفاذ المواد القانونية المهملة . فقد ملّت اسماعنا تذمرات الناس من تفشي البغاء ، فنروم أن يستتب الأمر في الدولة للعفاف ونقطع شأفة الفحشاء والاستباحة . وهذا اسكالوس ، مستشارنا الخاص ، يكون لك ما كانه لنا إذ تكون أنت في غيابنا ما كنّاه في حضورنا . فاعتمد مشورته ، واستمد إصالة رأيه ، الا انك أنت المرجع الأخير في النقض والابرام . والموت والحياة تحت سماء فينا بين شفتيك . فمن تشأ تمت ، ومن تشأ تحيِ ، بلا منازع ولا معارض »

فلما سمع انجلو هذا الكلام ، في حلقة جامعة لباب رجال الدولة ، من نبلاء وأعيان ، وفي حضرة الدوق المعظم ، تصاغر واعتذر ، معترفاً بالعجز

وقلة الجدارة ، ورغب الى الدوق في تولية رجل اكثر جدارة واوسع علماً فلم يقبل له الدوق اعتذاراً ، ولا فسح له المجال للمزيد من الكلام بل قال:

« ولما كانت الحال موجبة سرعة سفرنا ، واختصار ، الحجاج واللجاج فلا يمكننا أن نزودك بالارشادات مفصلة وسنواصلك بأوامرنا ، ونسمع منك وعنك ما نحب أن نسمعه من تصريف الأمور ، وتكييف شؤون الدولة العزيزة ، وسنسر بما نراه عند عودتنا من آثار عدالتك ، وثمار درايتك »

قال الدوق ذلك ونهض فنهض ، جميع اركان الدولة وأيديهم على أفواههم وبرح مودعاً ، ودعوا له بالسفر الميمون ، والعودة سالماً.

(٣) كلوديو

وكان في فينا شاب يدعى كلوديو ، ابن رجل شريف ، قد سبقت له خدمات جليلة في الدولة . وهو معروف ومعتبر في أندية فينا ، وفي المراجع العالية . وقد مات الرجل وزوجه عن فتى وفتاة . فاسم الفتى كلوديو ، واسم الفتاة ايزابلا.

أما ايزابلا فكانت تميل الى الفضائل والتقى . وأما كلوديو فكان من أبناء هذا الزمان . فسار هذا الشاب في مسلك اترابه ، فرأى وعلق ، واتفق مع حبيبته جولييت أن يعيشا معيشة زوجين ، دون اجراء مراسم القران ، لضيق ذات اليد . ونمّت الثمرة عن الحب . وهذا هو الشهر التاسع لجولييت وهي على وشك الولادة

فساقهما الجند الى حضرة انجلو . فلم يسعهما الانكار ، ولا راما انكاراً . بل صرحا بما جرى لهما . وانهما زوجان غير شرعيين . وهي الضالة التي

ينشدها انجلو ، لربح رضى الدوق ، ولأصابة قسط من الشهرة كانت تجوع اليه نفسه . ولأنه كانت له رغبة في الانتقام من الناس . فهي مزيته ، وهي من أسرار الحياة . فكان من رغائب انجلو أن طبق عليهما القانون . فصرح بأن جزاء كلوديو الاعدام . أما جولييت فتحجز في السجن حتى تلد .

فدافع كلوديو عن نفسه ، الدفاع المنتظر في مثل هـذا الحال . وأبان أن جولييت زوجه . وانما تعذّر عليه اتمام الطقوس الكنسية بسبب فقره . ولذلك اضطرا أن يحفظا أمر قرانهما سراً . ولذا فهو يرجو العدالة اطلاق سراحه . لأنه ليس من الفسّاق الذين يطبق عليهم حكم القانون

فلم يؤثر كلامه في انجلو . بل تمسك بحرفية القانون . فقال له يجب أن تقتل يا كلوديو عملا بنص القانون .

فتقدمت جولييت في دورها . وجثت أمام انجلو ، وهي في حالة تتفطّر لها القلوب .

صبية في زهرة الحياة ، وهي على أبواب المخاض ، قريحة الاجفان ، ساجمة الدموع ، مسدولة الشعر على الكتفين . وقد قضي على حبيبها وركن حياتها بالموت ، ولا ذنب له الا حبها . وان اعدامه يكسوها عار المجرمين الفجار . افيجوز أيها المولى أن يكون الاعدام جزاء الحب والامانة ؟ لاتسمح يا مولاي بيتم ولدي قبلما ترى عيناه النور . ولا تجعلن فضيلته الزوجية جريمة يعاقب عليها . انه لم يرتكب اثماً . انما حال ضيق اليد دون اجراء الرسوم الكنسية . ولو امكنه لما كان أحفظ منه للفرائض كما انه ليس أحفظ منه للعهود والمواثيق . فلم يرد أن يعيش عيش السفهاء بل اتخذني زوجاً حقيقية ان لم أكن شرعية وهو زوجي وملاذي وذخر حياتي

وسندي . ولا أراني أتيت سفاهةً بتسليمي جسدي وقلبي لكلوديو . لأني على ثقة من امانته ووفائه . والامين وان قصّر في اداء الواجب هو اكثر فضلا ممن حفظ الطقوس ، وأتم حرفية الناموس ، وهو خالٍ من الامانة والوفاء . فالحرف يقتل أيها المولى ، ولكن الروح هو الذي يحيي . فاتوسل اليك انا الأسيفة القادمة على احرج مواقف المرأة ، ان لا تحرمني هذا السند ، ولا تطفيء نوري ، وتجني على حياتي وسعادتي . ثم اجهشت بالبكاء وتذللت ، ولكن

لقد اسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

فبكت وبكى جميع الحضور معها . ولما انتهت فتح انجلو فاه متثاقلا كالمتمساح ، وقال لها : —

يجب أن يقتل كلوديو عملا بنص القانون

فتقدم والداها الشيخان وجثوا امامه يسترحمانه . وبكيا ، وقال والدها : أيها المولى الشريف النبعة ، ان انفاذ المادة في كلوديو لا يميته وحده ، بل يميت كثيرين معه .. فيموت بموته الآتية أسماؤهم

١ : زوجه ابنتي جولييت . لانها قد وهبت له قلبها . فبموته يموت قلبها . فتصير حينذاك ميتة وهي حية

ليس من مات فاستراح بميت انما الميتُ ميتُ الاحياء

٢ : نجلها ، الذي لا يزال في الرحم جنيناً . لانه مرتبط بوالدته يحيا بحياتها ويموت بموتها . ومن مات قلبها مات نجلها

٣ : نحن والديها نموت لموتها . لانها نور حياتنا وزهرة وجودنا .

ونحن على أبواب الابدية . فتسوقنا عاصفة احزانها وتهوي بنا ، فتنزل شيبتنا بحزن الى الهاوية .

فحاشا لك يا سيدي أن يتحمل قلبك أن تزيد ظلمات الهاوية أمامنا هولاً ورعباً . وتخيم على رأسينا اللذين بيضهما الزمان هذه الخيمة السوداء فاسمح أيها المولى الجليل وكن شفوقاً رحيما . ولا تقس قلبك فاننا كوالديك فلا تكسر قلبينا .

فرفع انجلو رأسه كالتمساح وقال لهما :— يجب أن يقتل كلوديو عملا بنص القانون .

وأخيراً خاطبه المستشار اسكالوس ، الذي أوصاه الدوق باحترام مشورته ، هذا قال : —

اني شديد الاسف ، يا سيدي اللورد ، على حياة هذا الشاب الذي لم يسىء الى غير نفسه . آه لو تعرف أي والد كان له . ولو انه حيّ ورأيته لايقنت أنه يستحق أن يعامل بشيء من الرأفة . هذا الشاب خلفه الاوحد ومحي ذكره ، اؤكد لك انه لو كان مولانا الدوق هنا ، واطلع على واقعة الحال لما حدّه حداً . ومع مؤاخذته على اهماله الاجراءات الرسمية فى أمر القران كان يصغي الى توسلات المتوسلين ، ولا سيما هذين الشيخين الجليلين فيعفو عنه . اني خاضع لأمرك يا مولاي كما أوصاني سمو الدوق ، فلا اعارضك في حكم من الاحكام . ولكني عملا بحكم وظيفتي كمستشار افضي اليك برأيي الخاص صراحة . فاني لا أرى هذا الشاب يستحق عقوبة الاعدام . وعلينا أن نذكر أي والد كان له . وما له من الافضال في خدمة هذه العاصمة . وهذا خلفه الأوحد نعدمه الحياة على تقصير طفيف هو معذور

عليه . لان الفقر غل يديه عن اتمام هذا الواجب . فما ضرّ الشريعة أن الكاهن لم يقبض من هذا الشاب اتاوة الفراش . فهل لملاحظتي هذه من قيمة لدى سيدي اللورد ؟

فاجابه انجلو :— موتاً يجب أن يمات كلوديو عملا بنص القانون . فلا مساغ للتأويل في مورد النص . ولا يجوز أن يكون الناموس العوبة نخيف بها الطيور . فالعفو عن المجرمين اعدام للناموس .

فاجابه اسكالوس ليكن ما تريد ياسيدي فاني خاضع لحكمك مع شديد الاسف . ولكن لا يغضب سيدي فاقول . لست أدري لو ان عظمتكم فكرت بما في نفس هذا الشاب من عنصر الشرف . وانك باعدامه تنقص ثروة العاصمة الادبية . ولا ادري اذا كانت ذاتكم الشريفة لاتذكر وقوفها موقفاً كهذا أمام تجربة الشباب

فرد عليه انجلو قائلا : —اعلم يا اسكالوس ان التجربة شيء والاستسلام للتجربة شيء آخر . ومع تسليمي بان القضاة خطاة كغيرهم من الناس بل قد يكونون اكثر جرماً ممن يحكمون عليه، مع ذلك فالحكم على الظواهر فقط . فاننا نلتقط الجواهر التي تراها عيوننا . أما التي لا نراها فتطأها اقدامنا . فلا نلطفن جناية كلوديو لكوننا خطأة نظيره . فقد عرفنا جرمه فالمعلنات لنا والسرائر حكمها للرب الهنا . وما ضرّ الشريعة ان يدين الخاطيء خاطئاً نظيره ، او يحكم القاضي على مجرم وهو مجرم ايضاً ، مادام الحكم مطبقاً على القانون. وإلا فلا يجوز لقاض ان يدين احداً من الناس. لانه كلما وقف امامه مجرم يعفو عنه . فيبطل القضاء وتفسد ، او تلغى الاحكام . فماذا يحل بالهيئة الاجتماعية اذ ذاك ؟ فانه حتى اللصوص يدينون لصوصاً نظيرهم . فنحن هنا

لا نحكم قياساً على انفسنا بل نحكم بنص القانون . وانا نفسي اذا وقفت موقف كلوديو لا اريد ان يكون قضاتي مشفقين عليّ ، ولذا لا ارى هنالك بداً من حد كلوديو عملا بنص القانون

فظهر أنه لم يبق هنالك أدنى أمل في حياة كلوديو فجزّت جولييت شعرها . وأغمي على والدتها في حضرة الحكام . وكان الشيخ والد جولييت يمزق ثيابه وينتف ذقنه . وقرعت النساء صدورهن أسفاً على حياة كلوديو الجميل . وكل ذلك لم يفت في عضد انجلو . فنادى السجان ، وأمره على مسمع الناس اجمع بانفاذ حكم الاعدام في كلوديو عند الساعة التاسعة صباحاً. ويجب أن يطاف به في شوارع فينا أولا للتشهير، ليكون عبرة لأمثاله، فلا يقدمون على ما أقدم هو عليه . فيرعوي الشبان عن فعلته حذراً من ميتته

لا ترجع الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

(٤) لوشيو

وانتشر خبر كلوديو في فينا انتشار النار في الهشيم وتناقلته الألسن والاسماع ، فقامت العاصمة له وقعدت . ليس فقط لأنهم رأوا في الحكم عليه بالاعدام قسوة زائدة ، بل لانهم كلهم ، على وجه التقريب ، كانوا من صف كلوديو . فخافوا أن يصيبهم ما أصابه . وذكروا أنه ابن رجل فاضل وأن فينا لا يجوز ، ولا يمكن أن تنسى خدماته العظيمة . فكلوديو عزيز أذله الدهر ، وعلى الأمة الكريمة أن ترحم عزيز قوم ذل . فاذا لم يكن معه دراهم يدفعها للقسوس فلا يجوز أن يعامل معاملة الزناة . لانه لم يهجر التي أحبها . وهو مستعد أن يعترف بها زوجاً ، بل قد صرح بذلك في

الموقف القانوني. فكان على انجلو أن يستدعي كاهناً يتمم له الفروض اللازمة، ولا يحكم عليه هذا الحكم الجائر. هذا كان رأي سكان العاصمة. والقاريء اللبيب يرى أنهم على هدى في رأيهم، وان تشبث انجلو بحرفية الناموس لا تشرف العدالة كثيراً ولا قليلا. ناهيك عما التف حول هذا الخبر من الأراجيف والمختلقات، كما هو الحال في كل مفاجأة كهذه، فمن قائل أنهم سيهدمون كل البيوت حول فينا. ولا يبقون الا البيوت التي داخل الأسوار. ومن قائل أنهم سيطهرون فينا نفسها من البيوت العاطلة، فراع الناس الأمر ووضع كل يده على رأسه، لان الجميع في الهوى سواء، فكان كل يخشى أن يكون ثاني كلوديو، فحصل في المدينة شغب ليس بقليل، وذلك ما كان الدوق يخشاه فلم يقدم على انفاذ القانون، بل ان الشغب الحاصل في فينا من جراء ذلك كان أضعاف ما ظنه الدوق الحكيم

وكان ممن خاض بحار الهوى، وأغرق في لجج الغرام، وساقته تيارات التهتك الى أبعد المواقف عن محجة الهدى ومواطن الاعتدال، فتى يدعى لوشيو، هذا كان صديقاً لكلوديو وتربا له، وكان يحترمه كثيراً، ويذكر شرف محتده فلما بلغه أمر الحكم باعدامه لم يصدق، وقال أنه قبل ساعتين كان معه، وانه على ما يرام، فما أسرع ما جنى ويحدّ؟ ولكنه لما خرج الى الشارع صادف الحشد وراءه يطاف به للتشهير، وهو مكبل بالاغلال، ووراءه جنديان يسوقانه، وأنه سيسجن الى أن ينفذ فيه حكم الاعدام، فدهش لوشيو، وكاد لا يصدق عينيه، ولكن هو الواقع، ولا مكابرة في المحسوس فصاح به: — عزيزي كلوديو، ماذا والى أين؟ فاجابه كلوديو اندب صديقك يالوشيو. فان حرية تماديت بها قادتني الى شر الاستعباد وسلسبيلا

رشفته اورثني شديد العطش. وها أنا اتجرع كأس العقوبة مترعة

فسأله لوشيو:— ماهو ذنبك ، هل سرقت ، أو قتلت النفس عمداً أو ماذا جنيت ؟ فاجابه لم اسرق ولا قتلت وليست لي جناية الا حبي

فانكر لوشيو ذلك كل الانكار ، أن تكون المحبة جرما وقال انت عالم يا كلوديو اني اكثر منك تقلباً في بحار الهوى ومجالس الغرام . فمتى كان الحب اثماً . فلو اني في موقفك لسعيت ودافعت ولم استسلم للحكم الجائر . فاخبره كلوديو بما حدث في المحكمة ، وان انجلو رجل صعب المراس ، فلم يقبل التماساً ، ولاسمع دليلا ولا برهاناً . وعبثاً توسلت اليه جولييت ووالدها وحتى المستشار اسكالوس ، فلم يغن كل ذلك عني فتيلا . وامر اللورد انجلو بانه يجب ان أعدم عملا بنص القانون .

فقال له لوشيو . ارفع أمرك الى الدوق فانه رحيم فينقض حكم انجلو . فاجابه كلوديو ان الدوق غائب ، ولسنا نعلم أين هو . ولم يمهلنا انجلو ريثما نتصل بسمو الدوق فنلتمس عفوه . وأما انجلو فالجماد يلين وقلبه لا يلين . فحسبنا الله وكفى .

قال لوشيو : وهل رأسك من خشب فيقطعه ابن بائعة الالبان ؟ . ولا يقطع الرأس الا من يركبه . أفلم تبق عندك وسيلة لردع هـذا الحاكم الغاشم عن غيه ؟

قال : — بقيت هنالك وسيلة واحدة . فان نجحت فبها ونعمت . والا فعلى الدنيا ومن فيها السلام .

— وما هي تلك الوسيلة ؟

— اعلم أيها الصديق الحميم ان شقيقتي ايزابلا الجميلة ذهبت هذا الصباح

الى دير سنت كلير لتكون من القانتين . على انها لم تلبس ثوب العفاف بعد فهي في طور الاستعداد والاسترشاد . فاذا كنت تصنع معي هذا المعروف فاذهب اليها ، وسلم عليها واخبرها بأمري ، وارجُ منها باسمي ان تأتي سريعاً الى انجلو ، وتتوسل اليه بحرارة لينقض ما ابرمه من الاحكام . واذا لم يشأ ان يطلق سراحي فليبدل الاعدام بالسجن . لان للسجين املا مهما يطل سجنه أما من كان تحت حكم الاعدام فليس له من أمل . واني اعلم ان ايزابلا شقيقتي — متينة الحجة ، بارعة باساليب الخطاب ، ذلقة اللسان ، حلوة الشمائل اضف الى ذلك جمالها الفتان ، وما للجمال من سلطة على القلوب . وللعذارى على قلوب الرجال سلطة مطلقة ، فلا يردون لهن مطلباً ، ولا يخيبون لهن أملا . زد على ما ذكر ان شقيقتي ايزابلا قلبها يتكلم لا لسانها ، لانها عن شقيقها العزيز تدافع . فتلين نفس انجلو امام حرارة نفسها ، كما يلين الشمع أمام النار فاليها عاجلا يالوشيو ، واقنعها ان لا تتأخر ، لان حياتي في خطر ، واذا تأخرت عن نجدتي فالوداع الوداع

قال الراوي . فطمأنه لوشيو ، واكّد له انه ذاهب تواً اليها . وشجعه وأمّله في الحياة . وكان من خلق لوشيو كثرة المزاح ، فقال لكلوديو هازلا : واني سأصحبها بادعيتي الحارة ، فتزداد حرارة على حرارة . فلا يلين قلب انجلو — بل يذوب — أمام تلك الحرارة

(٥) الدير — سنت كلير —

يعسر على ابناء هذا الزمان وبناته أن يتصوروا كيف عاش من كان قبلنا . كما انه يعسر عليهم ان يتصوروا ما كان للاديار من السيطرة على عقول

الناس اجمالا ، وما كان من صرامة احكامها وشدة قوانينها . ولا سيما دير سنت كلير هذا الذي قصدته ايزابلا . فمن قوانينه ان العذراء وقد دخلته لا تخرج منه الا محمولة على الالة الحدباء . وما دامت في الحياة فلا تكلم من تراه ، ولا ترى من تكلمه . فاما انها تتكلم من وراء الحجاب ، أو انها ترى من تراه صامتة ، ويجب ان يكون ذلك بحضور الرئيسة، حتى لا تكون هنالك مظنة ، ولا احتمال لحصول أدنى فساد . فكم كان في تلك الاديار في تلك الاجيال ، من الضحايا ؟ وكم قضي على جواهر غوال ، من ربات ذكاء وبارعات في الجمال ، قضين الحياة ضمن اسوار الاديار ، حتى قضين نحبهن وكان يمكن ان ينتفع العالم ، ويزدهي ، بمزاياهن وجمالهن ، ولكن قدر فكان وكانت ايزابلا الجميلة الشريفة عتيدة ان تكون احدى تلك الضحايا . وهي على وشك نزع ثيابها ، وتوشح ثوب الرهينة الاسود . فتدفن شعلة ذكائها في زوايا ذلك الدير القاتم وتواري بدر جمالها بغيوم العناكب والاقذار . فيخسر العالم مواهبها الخارقة

في ذلك الصباح كانت ايزابلا تتحدث الى راهبة تدعى « الاخت فرنسسكا » . فتسألها وتسمع لها ، وتلك تملي عليها ما تملي من قوانين الدير الصارمة ، وحياة راهباته الشديدة التقشف ، فسمعتا قارعا ينادي طالباً الدخول فاوعزت اليها فرنسسكا ان تفتح وترى من القارع وماذا يريد — لانه يظهر ان الصوت صوت رجل — انت يجوز لك ان تكلميه لانك مازلت حرة أما انا فلا يجوز لي ذلك . وانت أيضاً بعد ما تلبسين هذا الثوب الشريف لا يجوز لك ان تكلمي من ترينه من الرجال

فبادرت ايزابلا الى الباب وفتحته ، وسألت القارع ما الخبر وماذا

يريد ؟ وكان لوشيو على مامر بك من خفة الروح وطلاقة اللسان . فراعه باهي جمالها ، ولا سيما في ذلك المكان القصيّ . فان الورود لتزداد جمالا في كنف الاشواك . والنجوم لتزداد بهاء في حلك الدياجي . والغادة الحسناء لتزداد جمالا وروعة في محيط ادكن كهذا . فرفع لوشيو عينيه الى هيكل يفوق هيكل منرفا في القوام والاعتدال ، واستدارة الوجه ، وعلو الجبهة ، وحلاوة العينين ، وبياض العنق ، وحمرة الخد ، وبارز النهد ، ولاعس الشفة وناعس الطرف ، وناحل الخصر ، وواسع الصدر وعذوبة اللفظ ، ورنة الصوت . فطفحت الانفعالات في نفس ضعيف الارادة واندفع الى الكلام بما أوحت اليه انفعالاته قال : —

حياك الله ورونق الصبا . هل لك أن ترشديني الى ايزابلا أخت التاعس كلوديو ؟ .

فصاحت ايزابلا — أنا هي ، فلماذا هو تاعس ؟ ماذا أصابه ؟ بربك قل لي سريعاً !

فلما عرف لوشيو أنها هي ايزابلا التي جاء يسأل عنها ، قال لها أن أخاها يهديها اجمل تحية وسلام ، ويرجو أن لا توجس خيفة اذا هي علمت انه في السجن . فلم يكن هذا القول إلا ليزيدها لوعة وأسى . لانها لم تعرف لماذا هو في السجن فماذا اقترف ياترى حتى سجن ؟ والاهم من ذلك أنها لم تعرف ماذا وراء ذلك . أي ماذا يترتب على كونه في السجن ، ولذلك هو أرسل اليها هذا الرسول يخبرها . فان المرء ليتخوف أمام مفاجآت كهذه . فكل فتاة تعذر اذا هي أوجمت أمام أمر كهذا . والظاهر ان عند ايزابلا شعور يشغل بالها على حال أخيها الروحية ، فكانت متأهبة للقلق من نحوه

يدلك على ذلك انه فارقها ، وهي شقيقته الوحيدة . فعاش مدة مع جوليت وهي لا تدري من الأمر شيئاً ، مع انها شقيقته . ومن جهل حال الشقيق كان اكثر خوفاً عليه ممن يعرف حاله . والاوضح من كل ذلك انها جاءت الدير لتعيش فيه . ولماذا ؟ أليس لأنها تركت من الناس ؟ فقد مات والداها وهجرها أخوها . ولو كان اخوها معها لما آثرت نفس جميلة كنفسها حياة العزلة ، لان النفس الجميلة لا تختار العزلة والانزواء ، إذ لها في الهيئة الاجتماعية وفي معاشرة الآخرين غذاء يسد شوقاً في نفسها ، فلا تركب هذه المركب الخشن إلا يأساً من الناس ، ولا تيأس إلا لأحد أمرين ، الوحدة وفساد اخلاق من تعاشرهم ، أفلم يجتمع الأمران في حياتها ؟ فتركت وحدها ، فذاقت مرارة الوحدة ، ورأت في أخيها ، وفي من لامسوا حياتها من الناس ، شراً ، أو ميلا الى الشر ، ساءها شر مساءة . فلم يكن جزعها من موقف كلوديو بدون أساس . لهذا السبب الحت على لوشيو أن يقول لها لماذا سجن أخوها

وأروم ان القي نظرة على موقف هذه الفتاة ، ايزابلا ، لازيد القاريء احاطة بفلسفة حياتها . فانها بطل هذه الرواية ، ومدار وقائعها ، وقد ارادها شكسبير أن تكون مثالا للفتيات ، ولافراد الناس اجمعين . فلا بد من نقد شخصيتها وموقفها ، عارية من كل غشاء أو تمويه . فان النفوس تهوى الحقيقة عارية أي حرة من الملابسات فقد وصفها شكسبير وصفاً مسرحياً ولم يزد . ويجب ان يكون لنا نظر فلسفي ، يخترق المسرح الى ما وراءه من الاغراض الخالدة . وإلا كانت مشاهدتها لغواً كاعمال الاطفال . لقد وصفت ايزابلا بفاتن الجمال ، كرمان النهد ، وورد الخد ، واعتدال القد ، واشراق الوجه

وحلاوة العينين . ولا بأس في ذلك . فمن شأن الآنسات ان يوصفن بالجمال على أن الجمال العالي اجدر بان ترفع عنه الستور لتراه العذارى فتهواه ، ويراه الناس اجمعون فترتقي به البشرية جمعاء . ولا شيء يرقي البشرية كاعلان الجمال المعنوي أو جمال الاخلاق ، جمال النفوس ، جمال الله ، وبذلك تصير الرواية عاملا من عوامل الارتقاء ، وتشريف هذه الجبلة المطبوعة ، اصلا على حب الجمال ، وحب الجمال معرج الارتقاء ، فلا يكون الكتاب مفيداً إلا اذا أثر في نفوس قرائه هذا التأثير فتركها أرقى مما كانت لاستلماحها معنى الجمال الخالد ، وتشربها حب ذلك الجمال الذي تهواه الملائكة ، هذا هو غرض الكاتب الذي يستحق ثقة البشرية به واركانها اليه

(٦) فلسفة هذه الرواية — لمحة اولى —

كانت ايزابلا ، بطل هذه الرواية سريعة الخاطر ، يقظة الى مهابّ النسمات ، ساهرة ضد المفاجآت التي تهدد صرح فضيلتها وكمالها ، حريصة على ما يرفع العذارى ويضمن كرامتهن ، وقد ورثت عن ابيها الشمم والاباء أضافت الى ذلك ايمانها بالله وبجمال السموات ، وفلسفة ذلك الايمان وقف النفس على حب اكمل صور الجمال التي تدركها العقول ، وتوطين العزيمة على اختيار الحسن من الاشياء ، واصابة المرامي في حركات الحياة ، وفي سكناتها. ذلك نتيجة طبيعية لاستعدادها الروحي

لقد اصاب الناقدون بقولهم ان شكسبير يميل الى الاطناب في اوصاف ابطال رواياته ، وفي ايراد المُثل المنوعة من الناس ، وارى ان فكتور هيوغو يشاركه في هذه الصفة ، وكثيرون من الكتاب ينحون هذا النحو . فلا يوردون الامور مورد الحياة العادية ، إلا ويرصعونها بمثل اعلى . وذلك المثل هو

غرض الرواية الخاص ، وقد يكون منعوتاً بالبطولة ، او بالذكاء ، او بالثبات او بالفضيلة ، او بامانة في الحب وحفظ العهود . وتراه يكسو ابطال روايته ثوباً من المجد . قشيباً . استلفاتاً للانظار والاسماع . واستثاراً بعواطف المشاهدين. فله في الرواية شخصيات واحدى هذه الشخصيات ، ايزابلا بطل هذه الرواية. فهي الهدف الذي ترمى اليه سهام الحوادث. والغرض الذي ترمقه العيون والبصائر . لم يذكر المؤلف لماذا هجرت الحياة الاجتماعية وآثرت العزلة في الاديار وهي على ما ترى من النباهة وتوقد الذهن ، الذي من طبعه حب الهيئة الاجتماعية، والرغبة في المعاشرة والمخالطة. ولكن من أرسل نظرة صائبة في مجرى الحوادث المذكورة في سياق هذه الرواية ، ادرك حالا السر في ذلك الاختيار . وها أنا أورد لك القرائن

أولا : ان والدتها فاضلة ، ووالدها شريف ووجيه . ففي نفسها لذلك أثران ، أثر وراثي وهو حب الفضيلة ، وأثر اجتماعي وهو الاحتفاظ بالمقام وقد مات والداها ، فتركت لعناية نفسها بنفسها ، وذلك يضاعف حرصها ويقظتها بازاء مايهددها من العوامل. وكان اخوها كلوديو منصرفا نحو لذاته وشهواته ، فتخلى عنها ، فتحتم عليها ان تحمل حمل نفسها بنفسها

ثانياً : لم يكن أمام الشبان والشابات في أوربا، في ليل الاجيال الوسطى الا أحد مسلكين، هما السماء وجهنم. لان الديانة المسيحية المسيطرة على العقول في أوربا قسمت الناس الى فئتين متناوئتين ، هما آل الجنة واهل النار. ولهاتين الغايتين طريقان لا ثالث لهما. طريق صاعدة تؤدي الى الحياة والمجد، وطريق منحدرة تؤدي الى الهلاك والهوان. تتصف الاولى بالزهد والصون والعفاف والتقشف وضبط الاهواء ، والثانية بمطاوعة هوى النفس والاستسلام

للعوامل الحيوانية ، واختيار الحظ السامي في هذا العالم . والانجيل الشريف يقول : لا تحبوا العالم ولا الاشياء التي في العالم ان أحب أحد العالم فليست فيه محبة الآب : فكانت الديانة في مفهومية الاجيال الوسطى نصيرة المناسك والاديار ، واذا أطاع المرء هواه كان من الفجار . واذا غالب النفس فآمن وتاب كان من الابرار . هذا كان وصف اوربا صيكولوجيا ، قبلما توافرت عوامل اليقظة والنهضة الحديثة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر

فلما تركت ايزابلا من الوالدين والشقيق ، وهي سليلة المجد والشرف ، أبت عليها نفسها العالية إلا اختيار الحسن من الأمور ، احتفاظاً بكرامتها وطمعاً بالرفعة الخالدة . فلم تجد غذاء لنفسها إلا الاستمساك بعرى الفضيلة والتقوى . ولذلك وطنت النفس على مغادرة هذا العالم « الفاني » الى الدير فتدفن ضمن جدرانه جمالها الفتان وذكاءها الباهر فتستغلهما متى آن موعد الحصاد

« والزارع بالدموع يحصد بالابتهاج » ومن خسر واحدة في الدنيا استغلها ثلاثين وستين ومائة في الأخرى

هذه هي ايزابلا . وهي تمثل لنا مئات الالوف من العذارى الحكيمات اللائي « أخذن معهن زيتاً في آنيتهن مع مصابيحهن وخرجن لملاقاة عريس الحياة الأبدي » فلم يكن لها ندحة من التحكم في عوامل الجمال التي في نفسها ومجالي الجمال التي في جسدها ، والتقيد بقيود الرهبنة الثقال

إذا لم يكن إلا الاسنة مركباً فلا يسع المضطر إلا ركوبها

فكان دير سنت كلير المظلم البارد الجامد المتنطع في النشوفة والتعصب وجفاف القلب ، مدفن هذه الزنبقة الجميلة الفياحة . ويعلم الله كم في أمثاله من

امثالها على مر القرون . وهي الآن على وشك نزع الثياب العلمانية وتوشح ثوب الرهبنة الأسود . اذا بالباب يقرع ، ولوشيو يحمل اليها رسالة الشقيق ويدعوها لاتخاذ خطوة جديدة في الحياة

هنا يسلك واضع الرواية مسلك الطبع . فيصف الحديث بين لوشيو وايزابلا وصفاً مألوفاً ، فلما سألته ايزابلا لماذا سجن أخوها ، أجابها انه سجن لعمل لو كنت قاضيه لجزيته عنه خيراً ومحضته الشكر بدل العقوبة. فتقول له دع عنك المزاح ياهذا ، وافصح في تبيان العلة ، فما كان المرء ليسجن على الفعل الحميد . فيقول لها لوشيو وان يكن المزاح وحب المجون من خلقي فلست في محادثتك من المازحين الماجنين. لانك من قديسات الغوانى فالتزم الجد في مخاطبتك نائياً عن الهزل والمجون . فقد لاذ أخوك بحبيبة ، ساكنها مساكنة الأزواج . فتحكمت في نفسيهما عوامل الغرام . فنمّت براعم الهوى عما بينهما من صلة ، وهي على وشك الولادة. فتقول ايزابلا : أهي ابنة عمي جولييت؟. فيسألها لوشيو أهي ابنة عمك ؟ فتجيبه : لا ليس لي عم ولكنها رفيقتي في المدرسة، فأدعوها ابنة عمي تأدباً وتحبباً . فيقول لها لوشيو انها لهيه فتقول ايزابلا : اذا كان ذلك كذلك . فليتزوجها فيجيبها لوشيو : ذلك ما أبرماه فحسبه اللورد انجلو جرماً عليهما ، فحكم عليهما بالسجن وخص أخاك بحكم الاعدام ، وأبى إلا انفاذ الحكم . ذلك الشيخ السمج العاتي ـ انجلو ـ الذي له قلب كالجليد قاس وبارد فهو فاقد الشعور عديم الرأفة والحنان ، لانه أوصد قلبه عن الغرام الذي يثير في النفوس عوامل العطف والتحنان ، فيثقف الأخلاق ويزيت عجلات الحياة . فانجلو يرمي بذلك الى قتل الحب والغرام واستئصال الهوى والهيام. فيقضي على العاشقين قضاء الفأر تحت براثن الاسد

لذلك نبش من زوايا الدستور مادة نسجت عليها عناكب النسيان والاهمال ، وبنص هذه المادة قضى على كلوديو قضاء الموت . على شقيقك العزيز كلوديو . فهو مائت سريعاً اذا لم تمدي يدك لانجاده . فقد توسل الجميع حتى المستشار اسكالوس ، لدى اللورد انجلو لاجل حياته . فابى إلا ابرام حكمه وانفاذه . فتقول ايزابلا ويلاه . واحسرتاه على حياة الشقيق ولكن ماذا عسى فتاة مثلي أن تعمل في هذه الحال ؟ فيجيبها لوشيو : — اعلمي يا ذات البهاء والذكاء أن الله قد خصك بمزايا لها في نفوس القضاة أعظم تأثير . وأخوك كلوديو يعلم ذلك . وهو حبل أمله الاخير في الحياة . فقد تفعل توسلاتك في نفس انجلو ما لم تفعله مساعي الآخرين . أي أنها تحوله عن عزمه ، وإلا فاخوك مائت غداً لا محالة ، ولم يبق في جعبة الوسائل والآمال إلا سهام نفوذك وقوتك . فتقول ايزابلا بشديد الأسف والحسرة « قوتي ؟ وما هي قوتي ؟ اني أخشى أن لاقوة لي ولا حول بل أشكّ في أن لي قوة بعد . فيجيبها لوشيو جواباً ينم عن فلسفة الكاتب الاصلي قال :— شكوكنا شراكنا نعلق بها فتغلنا عن الخير يداً ورجلا . انك عالمة بسطوة الحسان على قلوب بني الانسان . ولا سيما اذا كن مجهزات بما منّ الله به عليك من الفصاحة وبلاغة البيان ، ومتانة الحجة وذلاقة اللسان . فاذا بكين وجثون وسالت لآلىء المدامع على جمان المحاجر ، وهن على ما وصفنا ، كان لهن في نفوس العظماء ما لخيل الطراد في ساحات الطعن والجلاد . فهيا لاغتنام الفرصة قبل الفوات ، والوحى الوحى لانتشال الشقيق من براثن الرزية وانياب الحمام

فتوكلت ايزابلا واستسلمت للاقدار وقالت سر أمامي الى أخي عاجلا ، واقرئه سلامي وبلغه محبتي واني ذاهبة الى انجلو حسب رغبته ، وذلك

بعد أن استأذن الرئيسة واستمهلها في التكريس ريثما أنهي مسألة أخي

فعاد لوشيو من حيث أتى ودخلت ايزابلا الى الرئيسة تستأذنها بمهلة ريثما تخدم أخاها في مهمة ذات شأن. وهكذا برحت الدير وهي تجهل ما تكنه لها الاقدار. خرجت وهي لم تقض في الدير وطراً ان كان فيه وطر. خرجت وهي تجهل أنها لن تعود اليه. بل خرجت منه خروج ابن يعقوب من سجن مصر — الى الرفعة والى المجد. برحت الدير وفيها اجتماع النقيضين — النار والنور — جمال فتان وقلب عفيف. وأمام ربة هذين النقيضين احرج المواقف واعسر المسالك

الفصل الثانى

(١) موقف الفتاة فى الحياة

الفتاة ، تحت هذه القبـة الزرقاء ، محط الغرائب ومجلى الآي . وهي نقطة دائرة التمثيل على مسرح هذا الوجود . فكم بلين بما يجعل الولدان شيبا ، من مشاق وأثقال تندك لحملها الرواسي ، وموقف ترتعد لها فرائص الجبابرة . تلك المواقف والمشاق أشرف ما اشتغلت به أقدم العباقرة . وذلك الاشتغال مرقاة رب اللوذعية شكسبير الذي رمى باخر منزع في كنانة بلاغته وسحر بيانه . ليصور حراجة موقفها امام مخيفات التجارب . موقفاً وقفته قناصة الاسود ، فابلت في جبهة نضاله البلاء الحسن . فنالت اكليل الظفر وغدت مثل الفتاة الأعلى . فجلست على عرش القلوب . قبلما جلست على عرش الذهب . وتوجت بالمحامد والفخار قبلما توجت بالتيجان المرصعة

انجلو وايزابلا شخصان على طرفي نقيض . وهما عتيدان أن يتصادما . وكلاهما يجهل ما يكنه له صدر الزمان . فايزابلا قلبها ـ كل قلبها ـ في الدير والنسك والفضيلة . ولكن حب الانسانية وعطف الشقيقة قذفا بها الى حضرة انجلو . وانجلو قلبه ـ كل قلبه ـ في ربح ثقة الدوق . والفوز بانفاذ القانون وما يترتب على انفاذه من ربح ورفعة وجاه . أمور هي بخار حياته . فايزابلا غيرية . وانجلو نفساني . هي تسعى للخير العام . وهو يسعى للخير الذاتي . هي تحب الفضيلة لذاتها . وهو يبغي النفع ولاجله يراعي الفضيلة . وسنرى ما يكون من أمر التصادم بين هاتين الشخصيتين . ونرى موقف الفتاة بازاء هذا التصادم .

(٢) تصادم الغيرين

رأينا أن ايزابلا وانجلو كانا غيرين جوهراً . وان كانا مثلين صورة . أعني أن كليهما متدين . ولكن كل تدينه في ناحية . وهما كذلك إذ الحاجب يقول لانجلو أن في الباب فتاة تروم أن تقابل عظمته . لتتوسل لديه لاجل أخيها كلوديو . فسأل انجلو أو للرجل شقيقة ؟ فاجابه من حضر : نعم . وهي نعم الشقيقة . فتاة جميلة نبيلة نقية تقية وفية . جمعت في شخصها محاسن النفس الى محاسن الجسد . فهي مثل الاخاء الأعلى . وقد علمت بما حكم أخيها فجاءت تسترحم للعفو عنه . فأمر انجلو بان تدخل . فدخلت وسلمت بتأدب واحتشام . فرد انجلو سلامها . ورحب بها وسألها من هي وماذا تريد . حسب تقاليد الحكام في كل زمن . يسألون الناس عما يريدون ويتجاهلون ما يعلمونه من أمورهم

فقالت ايزابلا ان هناك جريمة قبيحة . لم يكن من طبعها وعادتها أن تحبها أو تنصرها ، ولكن الضرورة الجأتها الى التدخل . مدفوعة بعوامل الأخاء فهي بين عاملي الشهامة والعطف ، الاول في موقف الجناية والثاني في موقف الاخاء فهي مع انكارها الجناية تسترحم انجلو على الجاني . وبقياس كراهتها المرض ترجو انقاذ حياة المريض . ثم انتقلت من العموم الى الخصوص ، فعرجت الى التصريح بعد التلميح ، والتفصيل بعد الاجمال . فكان كلامها من ابلغ مجالي التميز والبيان . فقالت ان لها اخاً اسمه كلوديو هو وحيد أمها ، وقد أحب فتاة تدعى جولييت ، وكان من أمرهما ما كان مما هو معلوم ومنتظر من فتاة وفتى سايرا الهوى . وان عظمتكم قد حكمت على كلوديو بالاعدام

واني آتية التمس عفوك عنه ، راجية أنك تدين الجناية وترحم الجاني

فأبدى انجلو استغرابه اقتراحها قائلا أن الجناية مدينة طبعاً وعرفاً حتى قبل ارتكابها ، فلا أحد يزكيها أو يحتملها . أما دينونة الجناة فهو واجب القضاة. فليست وظيفتي أن أرحم وأعفو ، بل أن اراجع السجلات فاصب العقوبة على المجرمين . فيجب أن يقتل كلوديو عملا بنص القانون . فابدت ايزابلا تهيباً أمام صرامة الشريعة وقالت بلهجة الآسف النادب : اذاً قد كان لي شقيق: قالت ذلك وهمت بالنكوص. فكان لوشيو وراءها فاعترضها وردها الى انجلو قائلا « ويحك لا تراعي » هـذا هو موقفك وهذا هو ميدانك ، ولم تكوني بالمجلية فيه . ألا تعلمين انك هنا لاجل حياة ؟ فعودي الى انجلو ، والحفي عليه بالتوسل وترامي على قدميه . وتمسكي باذياله . وابكي واسترحميه حتى يرق لك ويرحم أخاك . فلو أنك أتيت لأجل حاجة تافهة كدبوس أو ابرة — لما كان يمكن أن تكوني أوفر برودة مما كنت في مخاطبة انجلو

فأعادت الكرة على انجلو . وشرعت في توسلها على النحو الذي أشار به عليها لوشيو . فسألت انجلو بغمة وحزن . أمحتم موت أخي يا مولاي ؟ فرد عليها الحاكم الصارم : أن لا فائدة من التكرار ايتها الفتاة ، فان أخاك مائت لا محالة .فقالت له انه يقدر أن يعفو عنه فلا يموت . وان الآلهـة والناس تزكي الرحمة والعفو .فأجابها انجلو انه لا يقدر ان يفعل ما لا يريده . وان قد سبق السيف العذل . هنا تدفقت سيول فصاحة ايزابلا . وانطلق لسانها بما املاه عليها جنانها. وقد اثبته يراع أمام الشعراء في كل العصور فقالت اتقول سبق السيف العذل ؟ كلا يا مولاي ، فاني اقول كلمة واستطيع

ان اسحبها ، فانسخ حكمي الاول ولا جناح . وارجو ان يصدقني سيدي ان لا شعائر تفوق رغبة الانسان . فلا تيجان الملوك ، ولا صوالجة الامبراطورين او عروشهم ولا ملابس القضاة الرسمية ، ولا نياشين القواد الذين ربحوا المعارك الحاسمة ، ولا ما يذخره المرء من مال او علم او جاه — ليست كل هذه — لتعدل نصف قيمة الرحمة والجود والاحسان الذي يمن به على من هو في مثل موقف اخي . واتمنى لو ان السموات تهب لي حولك وطولك وتكون عظمتكم امام ازابلا متوسلا . افتظن ان الحال تكون حينذاك كما تكونها الآن ، بل كنت اريك من هو القاضي ومن هو السجين

فاستحسن لوشيو هذا الدفاع ، وهمس في اذنها ان « احسنت فزيدي مسي عواطفه ، ايقظي شعوره »

فلما رد عليها انجلو ان اخاها ضحية القانون ، وانها لتسرف في توسلاتها لغير جدوى ، صاحت به

واحرباه ، كل ابن انثى جان ، وقد اوجد الشارع لكل داء دواء . تصور يا مولاي ان قاضي القضاة يدينك بما جنت يداك فكيف كنت تكون امامه؟ الا تدري ان هذا التصور يسكب على شفتيك نعمة العفو ، كانسان ولد ولادة جديدة : ولما انذرها انجلو بان موعد الاعدام غداً صباحاً ، صاحت قائلة

الخلال من الله تعامل طيور الدجاج باكثر اكتراثاً مما نعامل بني الانسان ؟ فيكون بنو آدم الذين هم على صورة الله ارخص في عيوننا من الطيور ؟ فاننا حتى هذه الطيور لا نذبحها في غير وقتها المناسب ، بل نتحين الوقت الملائم لذبحها ، فكيف تعدم اخي بسرعة كهذه ، فلا تعطيه فرصة للتوبة ؟ رحماك يا قاضيه رحماك ، من الذي اعدم بزلة اخي ، على وفرة مرتكبيها

ولا شك ان انجلو يعلم ان ليس اكثر عدداً من اولئك المرتكبين ، لكنه تجلد ورد عليها بأن القانون ، وان هجع ، لم يمت. فقد هب القانون الآن من نومه ولا بد من انفاذ حكمه وإلا كنت ظالماً . لان الرحمة الكبرى هي بانفاذ حكم القانون ، لانه بذلك تقل خطايا الجناة ويعطي الاخرون ارهاباً يردعهم عن شرورهم « ولكم في القصاص حياة يا أولي الأرباب »

ايزابلا :— أفتكون انت أول ديان لهذه الخطية، ويكون اخي أول ضحية في سبيلها ؟ ، من الامور الممتازة أن تكون لك قوة الجبابرة ، ولكن استعمالها كجبار ، لا يبقى ولا يذر ، استبداد فظيع ، فلو ان عظماء الرجال ، الذين استطاعوا أن يرعدوا ويبرقوا ، كما يفعل اله الرعد ، فاستعملوا ما أوتوه من قوة ، لما انقطعت الرعود والبروق أبد الدهر . بل كان كل قاض ، وكل حاكم يقصف رعداً يهز الكائنات ويصم الأذان ، فرحماك أيتها السموات انك تقصمين بصواعق غضبك متون الجبابرة ولكنك تعفين عن المسكين ، فتحطمين اشجار السنديان القوية بدون بلطة ، ولكنك ترفقين بغض الازهار ورخص الأوراق والغصون ، فتتركينها سليمة من كل عطب . ذلك شأن الآلهة تنزل الاعزاء عن كراسيها وترفع المتضعين ، تشبع الجياع خيرات وأما الاغنياء فترسلهم فارغين . فتبرهن بذلك على وافر الحول وجم المجد . أما الانسان الرمة وابن آدم الدود — وقد تقلد سلطة قصيرة المدى ، ضيقة النطاق ، وهو يجهل ما تكنه له الاقدار في ثنايا المستقبل ، فانه يتمادى في عنجهيته ويتهادى في مشيته ، ناشراً ذيله كالطاووس تيهاً وافتخاراً ، أو كالسعدان الثائر عتواً وكيداً . وعيون الملائكة تفيض بالدمع السخين لما تراه من قسوة ابناء الناس وفظاعتهم . ليس من العدالة أيها المولى ان نقيس انفسنا بشقيقي

الشاب الأرعن . فقد يهزأ أرباب المناصب العالية بعواطف القديسين ، وهم يحسبون انهم يحسنون . على أن جنون التجديف هو دون ذلك الهزء سماجة وقبحاً . فما يفوه به القائد العظيم يحسبونه قولا جميلا . فاذا صدر من فم جندي صغير حسبوه قذفاً يستوجب الجلد .

أرجع الى قلبك أيها المولى ، وسائله عما يعلمه من أمر ما فيه ، وما طوته الليالي والأيام من واقعاته . فانك ولا شك تراه كقلب أخي من غير زيادة ولا نقصان . هذا اذا أردت أن تعترف بما فيك غير متحيز أو متعام. فلا يتسام لسانك بالقول ضد أخي كأنك في عالم غير عالمه ، وطبع غير طبعه ، وصنع غير صنعه ، وأنت أنت غير بريء من امثال ما جنى أخي

لما بلغت ايزابلا في خطابها هذا المبلغ شعر انجلو أنها تضرب منه على وتر حساس . فصمت صمت من دبت الى قلبه عوامل ذات سلطان ، فكأنه شعر بقوة القول أن الكلام الصادر من القلب يبلغ محله في القلب ، أما الكلام الذي مولده اللسان فمدفنه الآذان . بل كأنه شعر بصغارة شخصيته أمام عظمة الشخصية التي تخاطبه ، فكانت ايزابلا أمام انجلو كالاستاذ الكبير يملي على مسمع تلميذ صغير آي الحكمة ، فلا يرى التلميذ في نفسه حرية للمراء والمواربة . فحنى الرأس أمامها كأنها هي اللورد وهو الذليل ، فقد أسره ساحر بيانها ، وأدهشه در جمانها . فآنست في نفسها القوة فاندفعت بحكم فطرتها ، وبقوة الاستمرار ، تتلاعب في نفسه تلاعب نسمات السحر برخص الغصون . فاستهوته ، واستذلت ما عصى من هواه قالت :—

التفت أيها المولى فها أنا ارشوك ، نعم ارشوك فلا تنكرنّ عليّ الرشوة فلست ارشوك بما يرشو به صغار النفوس الحاكمين ، بفضة أو ذهب أو

بجوار غوال . لا وربك بل اني أرشوك بما ترشى به الالهة فتحول عن غضبها وسخطها . أعني بالتوسلات الحارة الصادرة من قلوب طاهرة ، تبلغ اسوار السماء فتخترق لها منفذاً ، قبلما يفترع شعاع الشمس الطاهر كبد الفضاء ويشق حنادس الظلماء — توسلات نفوس عكفت على التعبد والورع — نفوس عذارى نقيات السرائر والاذيال . عذارى وقفن الحياة على غير الزمنيات من المطامع . بهذا أرشوك يا مولاي صان الله ذاتكم العالية

فقال انجلو — يخاطب نفسه بنفسه — آمين من فضيلتك الساحرة ، وبراعتك الآسرة . اني أراني مشرفاً على أسر واستعباد لم آلفه في نفسي فيما سلف . فليصن ربي حياتي من نبال قداستك وسهام تقواك

وأمر بخروجها برهة . ثم تعود اليه . لانه يود أن يراها على انفراد . ويفهم منها عما تريده اكثر مما فهم . أي ليسمع على هدوء وفي جو رائق ايضاحاتها وبيناتها . وخلا انجلو بنفسه

(٣) العراك بين التعبد والهوى

هل رأيت اختباط الطير الذبيح ، بعد ان كان يملأ السماء تغريداً وزقزقة ؟ كأنه يملي على اسناد الملكوت بديع مواعظه وبالغ حكمه . وقد زعم ان قبة الفضاء له ديوان ومنبر ، وافانين الأغصان عرش واريكة ، وان الدهر صاف له صفاء فلق الصباح في شهر ابريل ، غب العواصف والامطار . فما عتم ان قلب الدهر له ظهر المجن ، فاذا بنبال الصياد تخترق منه الصميم . واذا سكين الذابح تخز منه الأوداج ، فحل به من احكام القضاء ما لم يكن منه بحسبان ، فذبلت عند كارثاته فصاحة قس وبلاغة سحبان ، وتحول شدوه

رثاء وصدحه نحيباً ، لانه قد انقلبت شؤونه شر منقلب . كان يعيش خفيف القلب خالي الهم ، مالكا اعنة المسرة والانبساط، لا يحسب لغدرات الزمان حساباً ، اما الآن فهو تحت براثن القضاء يئن أنين محتضر في حشرجة الصدور وأمامه دهاليز الابدية المظلمة ، لا يدري وراءها شعة أمل أو بارقة رجاء . انه اختبار مرير

القبر باب وكل الناس تدخله فليت شعري بعد الباب ما الدار

ذلك الطائر المندفع اندفاع السهم يدمدم في الفضاء ، ولكن قيده حلول الاجل عن كل عمل وأمل ، وسيغدو اسير الموت اسراً لا اطلاق بعده ولا فداء ، ذلك الطير مثال لحال انجلو الداخلية . ذلك اللورد المتقي . لما تحولت ايرلندا خارجة من حضرته . وعيناه على ذلك القوام يزري بغصون البان . وذلك اللسان يزري بفصاحة قس وبلاغة سحبان . وتلك الشمائل يحركها اذكى العقول فتأتي بطرائف المعقول . وعينان وقد ثار ثائر ربتهما فاتقد فيهما لظى الحماسة والغضب . امام هذا المشهد غدا ذلك المعتد ببره ، المعتصم بصلاحه، كريشة في مهب الرياح — رياح الهوى والغرام . وهو يري نفسه على شفا جرف هار . لا قوة له على الثبوت ولا صبر له على الجوى والصدود. فكان في داخله حرب شعواء ، احر نار الجحيم ابردها . وفي نفسه يدوي قول امام العاشقين .

دع عنك تعنيفي وذق طعم الهوى واذا عشقت فبعد ذلك عنف

فقد رماه رامي الهوى بسهم اصمى منه الفؤاد . فلم يكن الاميرال نلسون على ظهر « فكتوريا » في ميدان طرف الغار في ٢١ اكتوبر سنة ١٨٠٥ . ولا نابليون بونابرت الاول على قمة لابل اليانس في جوار وترلو

في مساء ١٨ يوليو سنة ١٨١٤ . ولا لويس السادس عشر في صباح ٢١ يناير سنة ١٧٩٣ ضمن الجيلوتين ، ولا يوليوس قيصر في ليل ١٥ مارس ولا ردجفنسكي على ظهر سيلابا في جوار صوشيما في ٢٨ مايو سنة ١٩٠٥ ، ولا أمثال هؤلاء في أمثال هذه الحوادث ، شر نكالا وأعظم اضطراباً مما كان فيه انجلو وقد غابت ايزابلا عن نظره ، وأوصد وراءها الباب

فانفرد في غرفته كالطير في القفص. زاهد متعبد عبثت به ، لأول مرة عوامل الغرام بفتاة —

كالبدر وجهاً والغصون قواما والشمس طهراً والملاك كمالا

فلا غرو ان شغل وصف ذلك الحال يراعة أديب بريطانيا ، ان لم يكن أديب الدنيا ، في كل العصور . فلما قالت له « ايزابلا » صان الله ذاتكم العالية » وخرجت ، قال يناجي نفسه :— آمين . من فضيلتك الساحرة .

اوّاه . ما هذا الذي أحسّ به في قلبي ؟ لماذا أحس به يختبط اختباط الذبيح ؟ كأنه يروم أن يتبعها لما انسلّت . فماذا حدث ؟ ما الخبر ؟ وخطأ من هذا الخطأ ؟ أخطأها هي أم خطأي ؟ لا . لا ليس هو خطأها ، ولا سوء صنعها . فانها لم تراودني ، ولا جربتني . ولو فعلت ذلك لما فتنتني . بل أنا الذي لاصق الزنبقة الجميلة في نور الشمس فاصابني مصاب اللحم المنتن ، لا مصاب الزهرة الذابلة ، فقسد بعوامل نقية. أفيمكن أن يكون ذلك كذلك؟ أن يسلب التأدب والكمال لبنا ولا سلب المتهتكة المملوءة العرى ؟ أفأهدم صرح قداستي بخسراني مركزي ، وأشيد على انقاضه قاذورة شر وفساد ؟ انه عار . عار . عار .

ثم تمشى في الغرفة ذهاباً وإياباً ، على غير وعي منه كمن أصابته صدمة

مفاجئة فاعدمته صوابه ، وأفقدته رشاده . فأن وتنهّد ، وقال يخاطب نفسه

انجلو — اين انت يا انجلو . وماذا تروم ان تفعل بهذه الحمامة الوديعة البيضاء النقية — ايزابلا ؟ أفتجرها الى حمأة الغرام ؟ أو تدنسها بعوامل برها وصلاحها ؟ فتجعل برها اثماً عليها ؟ آه يا انجلو — دع اخاها يعيش. للصوص إرادة في سرقاتهم ، بينما القضاة يسرقون انفسهم بأنفسهم ولا يشعرون . فماذا جرى ؟ اني أحبها . أهواها . وقد جذبت قلبي فهو يتبعها . الى الموت والى ما بعد الموت ، بل الى أعماق جهنم ، الى قرارتها ، ان كان لها قرارة . أهواها اهواها — اهواها .

ولذا اروم ان اراها ثانية ، وأن اسمع كلامها . اروم ان اكحل عينيّ برؤية وجهها ، واشنف سمعي بطلاوة حديثها ، وذلاقة لسانها ، ونبرات صوتها ، ورنّة الفاظها . ولانانها الجارحة في قلبي رنات ، ولتحمسها في احتجاجها في فؤادي طعنات . فاروم ان اتمتع ببديع محياها ، وان أرقى بسحر لحظيها . فما هذا الحلم الغريب ؟ . افأنا انجلوا مصلح فينا ؟ فأين تلك العظمة وذلك الاعتداد بالذات ؟ .

فانا الذي ما كنت ارحم عاشقاً حتى بليت وانني المرحوم

يالك من خدّاع لذّاع ، تتصيد الاقدسين بالاقدسين . فقد رميت بسهميها في اعشار قلب مقتل . ان التجربة التي تسوقنا الى هوة الهوى ودرك الغرام بمهماز الفضيلة والتقوى هي اقتل لنفوسنا ، الف الف مرة ، من التي تسوقنا بمهماز الرذيلة والسفالة والتبذّل . فلم تتمكن عاهرة من اغرائي واغوائي ، او من مسّ قلبي بعنوان دلعها وغنجها ، وظاهرات مجونها ، ورخاوتها ، وجواذب تهتكها وتهافتها . لا لا . والف الف لا . ذلك لن يكون وانجلو

أنجلو . اما هذه التقية النقية فقد خلبت عقلي ولبي ، وسلبت روحي وحبي . وبم ؟ . بفضلها وادبها ، بكمالها ونبلها . فالخطر كل الخطر على الصالحين المتعبدين ، ليس من خليعات الازقة ومومسات بيوت الدعارة . اولئك لا سلطة لهن على القلوب الكريمة — قلوب الفضلاء — فالخطر ، كل الخطر ، على افضل الفضلاء واعقل العقلاء ، واتقى الاتقياء وانقى الانقياء ، من ربات الكمال وملكات اعنة الحميد من الخصال . لهؤلاء — ولهنّ وحدهن — اعظم سلطة على اشرف القلوب .

يالليسموات . لقد عادت يدلني على ذلك انتفاض قلبي في صدري انتفاض الطير الذبيح . أو انتفاض الرجل الضعيف يسمع زئير الأسد ، ويرى بريق عينيه ولا حول له . ما لتيارات دمي برحت اطرافي فكادت تتجلد برداً ؟ وما لتلك التيارات هرعت الى القلب كأنها تتحفز للدفاع ؟ فانا مهاجم اذاً . واذاً خصمي شديد الحول صعب المراس . هو ايزابلا الفاضلة الحسناء . هذه الزنبقة الجميلة المرفوعة الرأس تتجلى فيها طهارة الملائكة ، تجعل قلوب الرجال تذوب في صدورها كما يذوب الشمع أمام سلطان النار . فلا سطوة في الارض ولا في السماء كسطوة الجمال المقترن بالفضيلة والكمال . فيالله الداهية . لقد جعلت قلبي عاجزاً عن ضبط نفسه بنفسه . عاجزاً عن التغلب على العوامل التي تهزه ، وأراه يتمزق كورقة مبلولة بالماء وهي بين يدي طفل نقيتين ، هكذا يتمزق قلبي بين يدي ايزابلا النقيتين ، وهذه جحافل دمي تتجمع في برج قلبي للدفاع — وهو أسير تلك القوة التي لا ترد — ولكن تلك الجحافل المحتشدة كادت تخنق قلبي لانها حجبت عنه النسيم . هكذا تقتل الملوك

شواغلهم الكثيرة ، فيندبون حظهم السيء ويبكون حرية مسلوبة ، وحلول سيادة الحب الجهول محلها متلبساً بأثواب الاثام وقبيح السيرة

(٤) اعادة الكرة المرة بعد المرة

رفع انجلو عينيه ، واذا بايزابلا تتهادى في مشيتها ، كانها عمود يمس رأسه السحاب . فيالله السموات . انه يراها كما ترى الذبابة ابن آدم ، فتتوهم ان رأسه يمس السماء . هكذا انجلو لم ير ما بين قمة رأس ايزابلا والقبة الزرقاء. لقد صغرت عجرفته أمام عظمتها الحقيقية . عظمة مركبة من عنصري الفضيلة والجمال . فتتمتع نفسها بحرية لا يعرفها الملوك ، ولا يحلم بها عبيد الاهواء والاوهام . لقد ذعر انجلو إذ رآها داخلة عليه كالملكة المتوجة ، لا انحناء في قوامها ، ولا ذبول في محياها ، ولا ارتجاف في خطواتها ، ولا تقطيب في حاجبيها ، ولا استرخاء في اطرافها ، فما السر في هذه العظمة الملوكية ؟ هي حرية النفس في عذراء طاهرة الاذيال ، نقية الفؤاد مالكة عنان نفسها لا تخفض الرأس امام متسلط بل هي فوق كل عظيم لانها متوشحة جلال الالهة وسلطانهم فامام هيبتها تخر الملوك وعلى اقدامها تترامى السلاطين. هذه هي العذراء النقية

لقد صعق انجلو لما رآها داخلة . وانتفض انتفاض عصفور بلله القطر. ووقعت العين على العين وهي ابعد من قاب قوسين . فكأنها رمته ببارقين ، بارق الثغر وبارق العين ، وذلك قبل التحام المعركة ليهون عليها الفوز . فاخترقت سهام لحظيها امنع حصون فؤاده . وشقت كبده شقاً ، ومزقت قلبه تمزيقاً ودكته صرحه دكا . ذلك السهم ينطلق من يد فينيس ملكة الجمال والحب

فيدمدم في الفضاء ، فيخترق صميم مهجة الطائر البريء ، هكذا كانت فتنة انجلو بعيني ايزابلا

فلما قال لها مالك أيتها الحسناء ؟ — وهو الآن وحده — اجابته : جئت ابغي رضاك .

فلا يقدر انجلو ان يخفي الآن ما يجيش في صدره من عوامل الغرام . اذ ليس من أحد يضطر للتظاهر أمامه بما ليس في نفسه ، أو بضد ما في نفسه.

فقال لها: اتبتغين رضاي وابتغاؤك هو رضاي ؟

فكل ماتبغين — الا العفو عن كلوديو — فهو لك مباح .

ايزابلا : — أإلى هذا الحد ؟ صان الله ذاتك العالية

انجلو : — ومن الممكن تمديد أجله . وقد يعيش كما يعيش كلانا . ولكن لا بد من ان يقتل

ايزابلا — بشيء من المداعبة — أو بأمر منك ؟ .

انجلو — وقد فارقه رشده — نعم

ايزابلا : — ومتى ؟ . ارجوك الافصاح . حتى اذا حان وقت الحمام يكون قد استعد للمثول أمام العادل الديان ، فلا تفجع نفسه بالمفاجأة

انجلو : — يالقذارة الانسان ! . ان العفو عن الجريمة بعوامل شريرة كالعفو عمن ساير اهواءه النجسة . فهي تحمل صورة السماء على طوابع محظورة . وقد يهوى المرء فيسلب نفساً بارة بسهولة كمن يمزج معدناً ثميناً بمعدن سخيف لتسك منه نقوداً زائفة

ثم التفت الى ايزابلا ، ولطف صوته ، ورق رقة الرقيق يقول ماذا تؤثرين ياربة الجمال ؟ أإنتزاع الشريعة العادلة حياة أخيك من بين جنبيه

أم افتداءك اياه بتضحية جسدك على مذبح لذائذ غير طاهرة، كالتي وصمت بعار؟

ايزابلا (بترصُّن وجد) — صدقني يامولاي إني أوثر تضحية جسدي على تضحية نفسي. لان الجسد للموت والفناء والهوان، أما النفس فللخلود والمجد والكرامة. فاتحمل في جسدي آلام الجراح والمياسم، واسلم جسدي الرخص للجلد بالسياط، والتمزيق والسحق، حباً بابن أمي، واشفاقاً عليه. واحسب جراحي عقوداً، وحبرها ياقيت، وندبها وسم شرف وفخار. ذلك أحب الي كثيراً من استسلامي للفراش الناعم بعد متاعب النهار

انجلو: ان نجاة أخيك من الهلاك أمر لا آتيه أنا. ولا يأتيه سواي ولكن أنت أنت — الشقيقة الحنون — وقد وجد في نفسك الجميلة هذا الحنان والعطف الخارق. أفتسمحين بالتخلي عنه تحت مقارع الهلاك القاسية أم تنشلينه من براثن الخطر المحدق، من مخالب الشريعة القاسية، من آلات التعذيب الحديدية القاسية، حيث لا قوة بشرية ارضية تتوخى اسعافه؟ فماذا ترين؟ هنالك أمران لا ثالث لهما. فاما أن تبذلي كنوز جسدك الجميل لهذا الغرض، أو انك ترضين بهلاك الشقيق الى الأبد وتسليمه للموت، بل لاشنع الميتات فأي الاثنين تختارين؟

ايزابلا برصانة وهدوء: ان موت الشقيق ثمن بخس بازاء صون العذراء وسلامة عرضها. وهو أصغر الشرين. اما اكبرهما فهتك استارها فدية الحياة. فاذا لم تمكن سلامة أخي إلا بافتضاحي فليمت عاجلا.

انجلو: أفلا تكونين حينذاك قاتلة اخاك؟. لانك تضنين عليه بالفدية وانت قادرة على إدائها. وقد قال الشاعر

ولم أر بين هذا الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام

وارك تنحين باللائمة على القاضي وعلى الشريعة ، وتهاجمين العدالة والقانون ناسبة اليهما الصرامة والقسوة . وكاني بكِ تنسين او تتناسين انك اشد منهما صرامة وقسوة : اما القاضي فتلومينه على ما لا يملك . لان حياة اخيك ليست في يدي. ولو انها في يدي لوهبتها له . ولكنها حرمة القانون. وهتك حرمة القانون وراء حدود مقدرتي . اما انت فتضنين بما تملكين . لان جسدك لك تضحين به حين تشائين . فاي أقسى ؟ القاضي والقانون ام الشقيقة الحنون ؟ واي اقرب الى حكم العقل العفو ام الفدية ؟

ايزابلا : الفضيحة فدية والعفو الحر غيران . وليس من نسبة بين الرحمة الشرعية وبين الفدية الحمقاء

انجلو : كوني انثى كما انت. والا كنت لا شيء. فالبسي لباسك الانثوي اللائق بك ، ودعي الترجل للرجال . كوني مسرة القلوب وبهجة الارواح فتزيحي الارواح . اقتحسبين جريمة اخيك امراً زهيداً ؟ ام تحسبين العفو عنه امراً صغيراً ؟ انه لا يمكنني الا بامر واحد هو اعز من الحياة — واعز من كل عزيز — واذا رمت الصراحة « فاني اهواك »

فرمقته ايزابلا بعين الزكانة والارتياح . كانها قد نالت من الدهر غايتها وقضت من لبانة العمر بغيتها ، وفكرت تفكير الراشد امام الطفل . وقالت باستفهام فيه لهجة خفيفة من الانكار : اتحبني ؟ وماذا ترغب من هذا الحب؟

انجلو : — ارغب ان امتع النفس منك ليلة واحدة

ايزابلا : — وماذا بعدها ؟

انجلو : — يحيا اخوك حراً طليقاً

ايزابلا :— وانا وانت ؟

انجلو :— نكون بريئين

ايزابلا :— وما جرم اخي حتى يمات

انجلو :— مخالفة الشريعة

ايزابلا : — وما الذي تطلبه انت مني ؟

انجلو :— شرع الحب

ايزابلا : وما الذي فعله اخي إلا ما تطلبه انت ؟ فكيف تحكم بموت اخي لامر انت تبغيه ؟ اتدين ذا خلق وتفعل فعله ؟ مولاي دع عنك هذا المزاح .

انجلو : — لا مزاح ولا هزل . اني اهواك اهواك . واذا ابحت لي ما اروم فلن يقتل اخوك

ايزابلا : — اني عالمة ان في فضيلتك اباحة ، تبدو اكثر فظاعة حين ترمي الى اقتناص الآخرين

انجلو : — صدقيني وشرفي ان كلماتي تعبر عن مكنونات قلبي فاني اهواك واقول الحق اني مفتون بك

ايزابلا :— ياللعار انك تطلب مني ثقة عظيمة بثمن زهيد . ولكن حذار يا انجلو فاني اشكوك . فوقع صك العفو عن اخي عاجلا ترضية لي ، وإلا رفعت الصوت عالياً لاخبر الملا اي رجل انت

انجلو :— ومن يصدقك يا ايزابلا ؟ فان سيرتي غير الموصومة ، ورفعة مقامي ، يحولان القضية ضدك . فان منزلتي الاجتماعية راجحة على اتهامك اياي . فتعلقين بالشرك الذي تنصبينه لي . ويؤخذ تطاولك علي بينة نقصك

فتكونين كالساعي الى حتفه بظلفه ، والعامل على نبش قبره بظفره . فدعي عنك هذه الاوهام ، وسلمي باقتراحي تربحي رضاي وحياة أخيك. واقصى عنك التردد والخجل اللذين يحولان دون ما خلقت لاجله ، وما خلقت كل أنثى لاجله . وبذلك تتمين غرض الحياة . والا اضعت أخاك بسماجتك وعنادك ، وورثت بعد ذا الفضيحة والعار . أما اذا لبيت طلبي ، ووهبت لي جسدك ليلة واحدة فقد ربحت أخاك . والاتحول حبي شناءة ، وغرامي ناراً مستعرة لا تبقي ولا تذر .

(٥) مجلى الشهامة والاباء

فلما تحققت منه ايزابلا انه يعني ما قال . وانه فعلا يهاجم حصن حياتها الحصين ، وقفت له وقفتها القانونية ، وقفة العذراء التي زانتها الطبيعة باسمى المزايا وابهى رسوم الكمال ، للدفاع عن كرامتها . فاعتدلت وشمرت عن ساعدها واندفعت في الخطاب تقول:—

انجلو (تعني يا انجلو) انك تتستر بالوظيفة والمقام ، لتخفي تحت تلك الاستار حيات شهواتك وعقارب رجاساتك ، وتتسلح بالعدالة والقانون للنيل من ربات الصون والعفاف ، وما انت الا عدو للعدالة والقانون

أما والذي ابكى واضحك والذي امات واحيا والذي امره الامر

للنار ولا العار . لانه

يهون علينا ان تصاب جسومنا وتسلم أعراض لنا وعقول

واذا تحكمت الشهوة في نفوس القضاة وأرباب المناصب العالية ، فاستسلموا لعوامل البغي والفساد ، واضحى صرح العدالة مهدما ، وحامي

العدالة حراميها ، وزالت الشهامة من نفوس الرجال ، ففي نفوس العذارى معاصم ومعاقل للشهامة لا تعرفها اكابر الرجال . ثم صاحت به — انجلو — ان أخي كلوديو وان سقط في شهوة اللحم والدم ففي عروقه دم الشهامة وعزة النفس ، لانه سليل والدين كريمين . فلا يقتني منك حياته بعرض شقيقته ، بل انه لو كان له الف رأس لضحى بها كلها ولم يسلم بما تبتغيه . انجلو ، ان أخي كلوديو هام بفتاة تخذها زوجا له ، وقف الحياة على حبها ، وهو غير مكلف تكليفك بصون الاعراض وحماية العذارى . ومع ذلك فقد قضيت باعدامه ولم ترق لدموع ولا لتوسلات . أما انت ، وانت متربع في دست القضاء ، وعلى منكبيك صون الاعراض ، ورعاية القانون ، وحماية العذارى ، مع ذلك تراودني ولا مراودة أخي عشيقته جولييت ، وتتغزل بحسني وجمالي وانت ديدبان الامة ومثلها الاعلى . مع ذلك قد تجاوزت حدود الجهلاء السافلين . بمراودتك عذراء حصينة لا لتكون لك زوجاً ، بل لتذلها وتقتل نفسها قتلا ، وتقتل معها المروءة والشرف ، وتقتل بها الصون والعفاف ، وتقتل بهتكك استارها الامانة والناموس ، وتقتل الصدق والوفاء ، وتقتل بها الانسانية ، لانك تتركها لعناية الخائنين الخائنين الفاسقين المرائين ثم صاحت بصوت عال ممدود قائلة انجلو — انك تبتغي ان تدوس كرامة العذارى برجلين غير مغسولتين ، وتقتطف زهرة نقية لتطأها بقدميك . وفوق الكل أراك تباهي بتقواك وتفاخر بامانتك .

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج في الحرم

ثم رفعت صوتها — وشخصت عيناها كأنها في نوبة هستيرية وصاحت به ، انجلو — . . . .

انك تهاجم صرح فتاة استضعفتها . وقد وقفت أمامك تتوسل اليك لاجل حياة أخيها فحسبتها غنيمة باردة أو كرم دنا قطافه وليس له سياج . فاردت أن تستغل موقفها ومنصبك ، ولم تخش الله ولا اهوال اليوم الآخر . فجنايتك ياهذا مركبة ، متعددة المناحي ، جناية على العذراء ، وعلى الجنس النسائي ، وعلى الهيأة الاجتماعية ، وعلى كرامة العدالة ، وعلى مقام القضاء ، وعلى القانون ، وعلى الشهامة ، وجناية على الديانة وعلى السموات ، وجناية على الدوق الذي انت ممثله . وقد حللت محله تأمر باسمه وتقضي بختمه . وقد ولاك فسفهت ثقته واختياره . وهاجمت العذارى المستظلات بظل حمايته ، واللاجئات الى اكناف رعايته . فانت تهزأ بالدوق يا انجلو وتستهين باركانه اليك واعتماده عليك . فانت اجرم الجارمين . واعدى المعتدين . فاخش الله يا انجلو ، واحسب ليوم الدينونة حساباً . فالحق يعلو ولا يعلى عليه . ومستضعف الحق هو الضعيف . وسترى ضعفك يوم انتصاب الميزان واعلان الديان . وانفتاح الاسفار وانكشاف الاوزار . فتقول للجبال اسقطي علينا وللاكام غطينا .

ثم صاحت صيحة هزته بها هزاً ، فشعر انها حملته عن عرشه وضربت به الارض ، فارتعش وارتعد لما قالت بصوت ممدود — انجلو — ...

ان عرشك هذا الى حين ، أما عرش الفضيلة الازلي فالى أبد الآبدين . على عرشك هذا تجلس الرذيلة والكذب والرياء . أما على عرش الفضيلة فعفيفات العذارى هن الجالسات اللائي لم يدنسن اثوابهن بامثالك . ولم تكن لهن صلة سرية تنجس ضمائرهن . فلا تسكرنك خمرة منصبك . ولا تعتد بمكانتك الوهمية

فاذكر زماناً سلفا سوّدن فيه الصحفا

ولم تزل منعكفا على القبيح الشنع

فليعش العفاف والعفاة . وليمت البغي والبغاة . وليسلم القضاء والقضاة.

لا يأمن الدهر ذو بغي ولا ملكا جنوده ضاق عنه السهل والجبل

ثم حولت وجهها عنه كأنها لا تريد ، ولا تطيق ، ان تراه واجهشت بالبكاء عالياً ، وقالت لمن اشكو امري وقد غدا خصمي حكمي . الى الله المشتكى . فيا أيتها السموات. الى كم تسكتين على الدنايا يأتيها أرباب المناصب! والى متى تصمين اذانك عن صراخ المظلومين !

ثم قالت تخاطب نفسها بنفسها ودموعها على خديها كالسواقي : — الى السجن اذهب . واقول لشقيقي الحزين « ياشقيق اتعس عذراء مت، فموتك خير من رضا انجلو

واطلب العز في لظى ودع الذ ل ولو كان في جنان الخلود

قالت ايزابلا ذلك وخرجت وانجلو يقول لها بلهجة هازيء متصلف :ـ ستعودين يا ايزابلا ستعودين . أنا اعرف طبائعكن. فاذكري حين يعاودك رشادك ان ابوابي واحضاني وقلبي مفتوحة اليك .

فمسحت دموعها بمنديلها . وخرجت مسرعة كأن ضارياً يطاردها .

الفصل الثالث

(١) الاب لودويك

قلنا ان كلوديو قد سيق الى السجن ، بعد ما طيف به في شوارع ڤينا « تشهيراً » وارهاباً . وان زوجه جوليت قد سجنت في غرفة وحدها، وهي على وشك الولادة ، وهي في اضيق وادنى الحالات . وقد رتب لها الحاكم أن لا يقدّم لها الا ما هو ضروري للحياة وكل ذلك بأوامر مشدّدة . فقد اراد انجلو ان يجعلها وزوجها عبرة للآخرين . وكان امل كلوديو الوحيد في الحياة معلقاً بفوز اخته ايزابلا ، والا فساعات حياته معدودة . أفيلذ لها طعام أو شراب في مثل هذا الحال ؟ . فلم تترك الاحزان محلاً في قلبها، ولا شهوة للطعام والشراب، ولا لشيء آخر من لذائذ الحياة . فلنتتبع مجرى الحوادث في ذلك السجن لانه صار المحور الذي تدور عليه فصول هذه الرواية .

لما كانت ايزابلا أمام انجلو ، تتوسل لاجل حياة اخيها ، جاء السجن راهب جليل المظهر بعيد الغور ، يدعى الأب لودويك . مجهول الاصل والغرض ، بادي المهابة والاحترام . فدخل السجن وسلم على السجان . وقال له انه يجول في خدمة النفوس التاعسة ، ولا سيما المحكومة باحكام جنائية في ظلمات السجون . ومن عادة المجرمين ولا سيما المحكومين بالاعدام انهم يعترفون للكهان بآثامهم . ويقبلون عن يدهم نعمة التوبة، وهم في ابواب الابدية . لمثل هذا الغرض يجول الأب لودويك ليخدم مصلحة النفوس

الخالدة ، ويقودها الى التوبة والايمان . وكان من عادة السجانين ان يبيحوا لهؤلاء الآباء الدخول الى سجون المجرمين . ويخبروهم عمن حكم عليهم بالاعدام ، ليتمكنوا من تطبيق خدمتهم الروحية على مقتضى الحال . فلما رأى السجان الأب لودويك ، وشعر ان فيه روحاً صالحة ، ردّ تحيته بتحية أحسن منها ، وقام له واقفاً على القدمين ، ورحب به احسن ترحيب . وكشف له عن الواقع في السجن . وذكر له حادثة جوليت وكلوديو . وقدمها اليه اولا ليعزي قلبها ، ويرشدها . فسكب قلبه في محادثتها وانارة سبيلها. واعترفت هي له بحبها كلوديو وانها شريكته في ما حسبوه جرماً ، وانه لم يسيء اليها ، بل هو زوجها وشريك روحها وحياتها . فهو زوج حقيقي وان لم يكن زوجاً شرعياً . وانها تود لو انها تموت وهو يبقى حياً ، ضناً بشبابه وشهامته

لقد كانت كلماتها بسيطة ، لكنها تنم عن احزان عميقة ، ونفس نقية ، بعيدة عن مواطن العهر والفساد. وان خطيتها، ان كان ثمة خطية ، هي خطية كنسية طقسية ، لا الهية روحية . وكل من سمع حديثها ساءته عقوبتها ، لانها لا تحسب في عين العدالة جانية .

وغاية ما في الامر انها وزوجها بسبب فقرهما لم يتمما الفرائض الكنسية في امر الزواج . فطيب الكاهن خاطرها ودعا لها ولمولودها بالحياة الطيبة والحصول على نعمة الآب السموي الكلي الحكمة والمحبة والصلاح . واوصاها ان تكل امرها اليه تعالى . لانه هو وحده الدائم . اما كلوديو وان كان صالحاً وباراً فلا يمكن ان يضمن دوامه . فهو رهينة الموت على كل حال . والمتكل الابدي هو واحد لا غير . وهو الذي فوق أحكام الموت .

فكفكفت دموعها ، وقبلت يده، وسلمت امرها الى الله . وهي في حال يرق لها صلد الصخر لو يشعر . بعد ذلك تقدم الآب لودويك الى حضرة كلوديو الذي كان قابعاً في سجنه ، يتوقع اما فوز انزابلا فاطلاق سراحه ، واما فشلها فالموت الزؤام . في هذه الاحوال وصل الأب لودويك وسلم وقدم السجان اليه كلوديو فكلمه كلام حكمة لطيف ، ووجه افكاره الى ما رواء الموت . وان الخوف من الموت هو مرض النفس، لا يشفيها منه الا الايمان وان المرء ليتحرر بالموت من مخاوف الموت ، وما دام الموت أمامه فهو مائت كل يوم

لا طيب للعيش ما دامت منغصة لذاته باذكار الموت والهرم

لا مهرب من الموت عاجلا أو آجلا . وغلبة الموت لا تقوم بطول الحياة ، بل بالتسليم لقضاء الآب الازلي ، والخضوع لمشيئته البارة . وان وان سعادة المرء حقيقة ليس بالعفو عنه من حكم الاعدام ، بل بغلبته الموت ، وشفائه من مرض خوف الموت . وان الانسان دودة صغيرة ، وان الخطية هي الداء الذي يعتري النفس . لذلك كان موت الجسد ضربة لازب . وان وان حياة النفس بعد الموت هي السعادة الكبرى . وكان كلوديو يستفهم الأب لودويك عما اشكل عليه فهمه ، ويصادق على صحة تعاليمه ويستحسنها، ويشكر الأب لودويك على وعظه وانذاره ولم يعترض اعتراضات ناشفة وعقيمة . ولا انكر شيئاً من التعاليم الروحية . ولا ابدى شيئاً من القسوة أو الخشونة . بل شكر الكاهن على وعظه المفيد وابدى ميلا للتسليم للآب السموي . فكان اجتماع الاب لودويك بهذه العائلة المنكودة الحظ نموذجاً عاليا للخدمة الروحية ، التي يقوم بها اشرف رجال الدين ، واكثرهم شبهاً

بالمثل الأعلى وهي مقياس الخدمة التي تقوم بها أشرف النفوس واعلى الهمم .
واذ الكاهن على وشك ختام الحديث سمع صوت ايزابلا قادمة من عند انجلو ، لتخبر اخاها بما كان منه ، وماذا جرى بينها وبينه على ما مر بك وصفه ولا حاجة الى التكرار

(٢) الشقيقان

سمع كلوديو صوت اخته قادمة ، فكان كله شوقاً ورغبة لرؤيتها وسمع حديثها ، وماذا كان من أمر انجلو معها . هل رضي بالعفو عن كلوديو أو لا . فاقتادها السجان بلطف وتؤدة الى داخل . وجمعها باخيها . ولما لحظ الاب لودويك أنها منفعلة وحرة النفس ، انسحب الى خارج ، وسأل السجان ان يأذن له بخلوة يسمع بها صوتهما ولا يريانه . قال لكي اتمكن من الوقوف على حقيقة حالهما ، وأشخص الداء كما هو تماماً . فاتمكن من ابتدارهما بالدواء . ففعل السجان برغبة الاب وأخذه الى غرفة متصلة بغرفة كلوديو . وبينهما باب ، وان كان مقفلا ، لكن من كان وراءه يسمع كل كلمة من الغرفة الثانية

فبدأ الحديث بين الشقيقين على النحو الآتي .

كلوديو : ما الخبر ؟ ماذا جرى لك مع انجلو ؟ سألها كلوديو ذلك بلهفة تنم عن حرصه الزائد على التشبث بالحياة ، ورهبته من الموت مهما يكن من أمره . وكان مشفقاً حد الاشفاق لان ايزابلا آخر سهم في كنانته . فاذا نبا هذا السهم انقطع كل أمل له بالحياة ، وساد اليأس قلبه وكل قواه . وقد اختار ان تكون شقيقته رسوله الى انجلو لانه أدرى الناس بمواهبها ونفوذها فاذا كان العفو عنه غير ممكن فليبدل حكم الاعدام بالسجن . واذا كان العفو

ممكناً فايزابلا أفضل وسيلة للحصول عليه . فلما دخلت السجن وسمع صوتها ورآها وصافحها وقبلته تحركت في قلبه عوامل حب الحياة . لذلك سألها ما وراءك يا عصام؟ فاجابته ايزابلا :— عندي أن تموت يا كلوديو، مت يا ابن أمي، لانه قد طاب الموت . ان عظام ماريوس والدك ، وهيكل مرغريت والدتك ، في قبرهما يمليان عليك أن تموت موت صناديد الرجال .

كلوديو : — ماذا كان من انجلو ؟

ايزابلا :— للورد انجلو مصالح في العالم الآخر . وقد اختارك رسولا اليها فغداً ستركب الطريق فتهيأ .

كلوديو أليس هنالك من علاج يا شقيقتي ؟

ايزابلا : — لا يسلم الرأس الا بشق القلب

كلوديو :— فيوجد رجاء بالسلامة اذاً .

ايزابلا :— اي شقيقي التاعس . رجاء بحياتك يوجد ، ولكن الثمن باهظ جداً ، لا إخالك تدفعه . ان في قلب قاضيك رحمة شيطانية نجسة . فاذا تهافت على نيل حريتك نلتها . ولكن ليس بدون قيد يستلب حريتك الروحية طول حياتك . ويحجزك ضمن حدود ضيقة النطاق الى الممات ، على سعة العالم من حولك

كلوديو :— وما هي طبيعة هذا القيد ؟

ايزابلا :— انه يجردك من الشرف ، فتعيش عارياً مكشوفاً ما حييت

كلوديو : — أفصحي البيان لأفهم واقعة الحال تماماً

ايزابلا :— اني أخشى ان يحملك حبك الحياة ، ياكلوديو العزيز على دفع الثمن . وذلك ليس في مصلحتك

ان حب الموت خير للفتى من حياة في الدنيا والفجور

فاخشى أن تضحي بشرفك تشبثاً ببضعة اعوام تقضيها في الشقاء. فهل عندك جرأة على اقتبال الموت؟. ان التفكير بالموت يذعر النفوس الصغيرة فالحشرات الحقيرة التي تطأها اقدامنا هي اكثر خوفاً من الموت من الجبار العنيد

كلوديو: — لماذا تخجليني يا ايزابلا؟ افتظنين انني ادنس زهرة من طاقة الكمال؟. لا لعمري. فاذا كان موتي محتوماً فاني احسب ظلماته عروساً جميلة اطوقها بذراعيّ

ايزابلا: — اذا كان ماتقوله صحيحاً فاصغ الي. ان قبر والدينا، وعظام والدتنا، يخاطبانك ياشقيقي المحبوب، بمجد والحاح، قائلين لك «يلزم ان تموت» فانك اشرف من ان تتلطخ بالعار. فموتك هو ضمان شرفك وشرف العائلة احياء واموات. ان هذا الحاكم السفيل، المتظاهر بالقداسة، له كلمات ومقاصد تخدش اذهان العذارى. وهو يرمي الى غلهن باصفاد الحماقة والفجور. كما تفعل الجوارح بالحمام الوديع والضواري برخص الحملان البريئة فهو شيطان ياشقيقي في صورة آدمي، وغد لئيم في منصب حاكم. وان رجاساته لبعيدة الغور كاعماق جهنم التي لا قرار لها. لذا وجب على طاهرات العذارى مزيد الحذر منه، مهما يسم منصبه، ويعظم حوله

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

كلوديو: — أأنجلو حاكمنا هذا؟.

ايزابلا: — نعم نعم. ياله من جهنمي شنيع، ان جسده الفاسق عش الدعارة والفساد، ومغناه المخيف عرين مخيفات الكبائر وموبقات الاثام. هل تصورت قط يا كلوديو انه يعفو عنك اذا ابحت له من عرضي ما لا يباح،

فمكنته من هتك استاري وحل ازراري ؟

كلوديو :— ياللعار ! . ان ذلك لن يكون .

ايزابلا : — وبذلك يكون عاراً ابدياً . واذا لم افعل الليلة فعلة ، مجرد ذكرها أو تصورها بالفكر ترتعد له فرائصي ، فانه منفذ فيك حكم الاعدام غداً لا محالة فتأمل في حرج الموقف . ولا يحملنك حب الحياة على التضحية بالشرف

كلوديو : لا لا . لا تطاوعيه أبداً . اني أموت برغبة واختيار فالنار ولا العار

ايزابلا : — آه لو ان حياتي هي الثمن . اذاً لبذلتها مسرورة فدية عنك ياشقيقي المحبوب

كلوديو : — اشكرك ياشقيقي الحنون

ايزابلا : — فاستعدن للموت ولا يشغلن قلبك أمر الحياة . لانها تكلفك مالا ترضاه ، ولا يرضاه ناموسنا ولا عظام الوالدين

كلوديو : — من كل بد يا أختاه . ولكن افي انجلو غرام يحمله على جدع انف الناموس الى هذا الحد ؟ .

ثم فكر كلوديو قليلا . وظهر كأنه في بحران . وجعل يخاطب نفسه بنفسه . كأنه على شط بحر الموت ، وقد شمر عن ساق العزيمة وأخذ يتردد في خوض غماره . فقال بصوت خافت : — حقاً انها ليست خطية . وعلى الاقل انها ليست احدى السبع الكبائر . فلا اظن الا انها احدى العرضيات

حاشية . يجب ان يعلم القاريء ان الكنيسة النصرانية قسمت الخطايا الى قسمين عرضية ومميتة . فالمميتة هي السبع التي دعوها كبائر . كالكبرياء

والحسد والزنى والقتل والسرقة . والعرضية هي الصغائر كالاغتياب وكسر الصيام واهمال الفروض . فكلوديو يحدث نفسه بان تسليم اخته بمطلب انجلو يجب ان يعد خطية عرضية ، وليس من الكبائر

ايزابلا : — وماذا تعني بذلك يا كلوديو؟ اتريد ان تصلح علم اللاهوت وتنقح الناموس الكنسي ؟

كلوديو : ـ آه ياشقيقتي

ايزابلا : ـ مالك يا ابن أمي ؟

كلوديو : ـ الموت مر

ايزابلا : ـ والفضيحة امرّ

كلوديو : ـ ان فقد الحياة أمر رهيب

ايزابلا : ـ وارتكاب الخنا أشد رهبة ونكالا

فالمنايا ولا ارتكاب الدنايا وقبيل الخنا ركوب الجنازه

كلوديو : — الجنازة . اه اه . ما أسهل ذلك على غير المائت من الاحياء. ان اغمض عيني عن نور هذه الحياة . واذهب في مظلمات الطرق الى حيث لا أدري ، ذلك أمر يروعني ويزعجني . فحين أفكر في كيف اضطجع في التراب ويفسد جثماني ويمتزج بمدر الارض ، أرى انه لو اجتازت النفس الطروب بحاراً من اللهب ، أو لبثت جامدة في بقاع الجليد الكثيف . أو سجنت في مهاب رياح السموم المظلمة . أو جالت في تيه الظلمة الخارجية مثقلة بأثامها ، خارج حدود العالم الجميل ، بعيدة عن الصحب والاهلين . أو لو كانت في شر حالات الوجود ، أسيرة الافكار الشاردة ، في قبضة المخاوف المرعبة ، وفي أشقى حالات الحياة ، واوفرها تعباً ومرارة ، تمني مبرحات

الآلام والجوع والسجن والعذاب — كل ذلك — خير . بل هو نعيم بالمقابلة باهوال الموت وظلمات اللحد

ايزابلا : — ويلاه يا شقيقي العزيز !

كلوديو :— شقيقتي الحنون . هبي لي حياة ، فاية خطية ترين في انتشال حياة الشقيق من لجة الهلاك ؟ ان الطبيعة تتساهل بالخطية فتحسبها فضيلة اذا كانت لقصد صالح . فان الغاية تبرر الواسطة ، كما يقولون . فليتمتع بك انجلو ليلة ، أو بعض ليلة ، فانال بفضل ذلك حياة طويلة وحرية طيبة ، مع زوجي العزيزة جولييت ، فلا أحسب ذلك وصمة في نفسك ، بل أراها جمالا يزينك

(٣) احرج مواقف العذراء

هنا موقف آخر تقفه العذراء ، هو أشد حراجة من موقفها أمام انجلو. هنالك وقفت أمام وحشٍ يهمّ بافتراسها ، فنفرت نفسها الجميلة من قبيح صورته . وصدت خائناً يراودها باغياً أن يغمسها في العار . أما هنا فهي أمام الشقيق الكئيب وهو أمام ظلمات اللحود . — وحيد أمها ، وعشير حياتها ورفيق نشأتها — يتوسل اليها أن تهبه حياة . يخاطبها بذلة وحنان وبشفتين ترتجفان . فيمكن قارئي العزيز أن يتصور أهوال هذا الموقف . فلا أظن ان فتاة وقفت موقفاً أشد حرجاً وخطورة من هذا الموقف . فهي بين الأمانة والحنان . بين الشرف وبين حب الشقيق . وتيارات الرياح التي تصدمها تقلقل الشمم الرواسي فماذا ينتظر منها ياترى ؟ وعلينا ان نذكر أن ايزابلا لم تكن قاسية القلب كنودة . بل هي الحنون العطوف الجميلة النفس

الحلوة الشمائل، الرقيقة الالفاظ، اللينة الأعطاف . وانت ترى هول التجربة. هذه هي النقطة الفارقة بين ملوك الانسانية وصعاليكها ، بين ربات الفضيلة واسيرات الضعف وصغارة النفس ، بين ملكات الأدب وساقطات النساء . والفرق عظيم بين هذا وذاك . هو أبعد من أن يقاس . فكما ان الفرق بين الحياة والموت هو أبعد من أن يقاس هكذا الفرق بين المكانة الادبية والسفالة هو أبعد من أن يقاس . والفتاة في مفترق الطرق وملتقى الخطوط . وعلى الخطوة الاولى يتوقف مصيرها ، ومصير انسالها وذراريها ، ومصير الانسانية فاما الثبوت والصعود والسعادة والمجد . واما الزلل والهبوط والشقاء والخزي . فالامر معلق على همة الفتاة وعزيمتها .

فماذا كانت القارئة تفعل لو أنها في موقف ايزابلا ؟ هل تسلم نفسها للفضيحة والعار ؟ أو تحكم عقلها ووجدانها في الامر فتختار الكرامة والحرية الادبية ؟

هذا هو غرض هذا التأليف .

وهذا هو غرض كل تأليف شريف

فلنرجع الآن الى المشهد لنرى ماذا فعلت ايزابلا . وان اليراع الذي سبك الفاظها ، والعقل الذي ابتدع خطابها . محسوب من اذكى الكتاب في كل العصور . ويراعه اشرف ما أدارته أنامل كاتب في كل الامصار . هو شكسبير وكفى

فلما سمعت ايزابلا من اخيها ما مر بك آنفاً . فهمت انه سقط أمام التجربة وباع كرامتها بحياته ، فانتفضت حينذاك انتفاض بساط هزته الايدي من اربعة اطرافه . وصعد كل دمها الى رأسها ، واحمرت عيناها ، وتجلت

في محياها رسوم الاباء والشمم ، وتحولت الى لبوءة متثم أو دبة ثكلى ، وكأنها قد انتزع من قلبها كل رأفة وحنان . وتجردت عن الأوضاع الانثوية . ولم يبق فيها إلا الشهامة وعزة النفس اللتان ورثتهما عن والديها . فنفرت من كلوديو نفورها من التيس الاجرب ، وخاطبته بأنفة وجفاء وانكار ، شامخة الانف تصيح بأعلى صوتها وهي ترتجف لشدة الغضب قائلة : —

أف لك من نذل جبان . افتكون رجلا وأنت تقتني حياتك بفضيحتي؟ انا ابنة أمك وحاملة شرف ابيك . افتحتمل أن تراني مكشوفة — مهتوكة الاستار — لكي تعيش ؟ يالك من وغد حقير خامل النفس ، لا يحسب أن من أدنى صنوف المذلة أن يستغل فضيحة شقيقته . فيدفن كرامتها وبهاء نفسها في لحود شهواته المظلمة ، ويضحي بشهامتها ومجد أبيها تحت اقدام نجسة ، رغبة في اقتناء حياة يقضيها بالمعاصي والآثام

فماذا أقول يا كلوديو ، آه لو ان السموات سترت والديّ فلم يلدا مخلوقاً يكسوهما العار بعد موتهما ويلقي على كاهل العذراء حملا تنوء تحته شوامخ الجبال ، مخلوقاً يرتضي ان يكسوني عاراً وله رأس يرتفع بين اقرانه وعينان تتفتحان على أعيب المشاهد وأنكرها ، آه يا كلوديو ، الآن أندبك وابكيك بدموع حرى ، لا لانك تموت جسداً ، بل لانك ميت روحياً . لقد كنت أظن انك تحسب موتك في سبيل صوني وعفافي اشهر المطالب واسنى الرغائب . فكنت أنا بدوري اشتريك بكل مرتخص وغال ، لان حياتك تكون اذ ذاك ضامنة رفعتي وكرامتي اما وانت في غير ما ظننتك وحياتك اعظم خطر يهددني فمت ، انك لا خير فيك

وكل من لا خير فيه يرتجى ان عاش او مات على حدّ سوى

بل اني أرى موتك مغنما لانه ضمان سلامتي. وختم كرامتي . فمت . اهلك . فارق نور هذا العالم الى الابد . ولا تعد . قبلما تخفض الرأس ذليلا بين اقرانك يا مشتري الحياة بالاعراض . ويا من يدفع الشقيقة من قمة المجد ، الى اعمق دركات الدناءة والشقاء . انك بذلك تساعد خصمك الظلوم على النيل من بيت ابيك ، وتملىء اعدى عداك ، ليس على قتل الاجساد ، وسلب الارزاق ، وهدم الديار ، بل على ما هو اشد نكالا وافظع حتفاً ، على قتل النفوس وسلب الكرامة وافساد السمعة

لقد كنت أسعى لأنقاذك . وتركت في سبيلك منسكي وعبادتي . أما الآن فانعكست الآية لخيبه ما أملت فيك. فبتّ اخشى أن تعيش يا كلوديو. لأن حياتك تتقاضاني ثمناً اضنّ به على الالهة لو انها تطلبه . فالف صلاة لموتك ولا طلبة واحدة لنجاتك . فاني لا أطمئن على سلامتي وصيانة نفسي مادمت يا كلوديو في الحياة . ومتى اغمضت عينيك عن نور هذه الدنيا امنت على نفسي وعلى شرف والديّ . فمت يا كلوديو الشقي . مت يا أتعس من ولدت النساء . مت لا رحمك الله . ان عظام والدتي في لحدها تلعنك ، وتبغي لك الهلاك الذريع .

كلوديو (باكياً) : اسمعيني يا ايزابلا

ايزابلا : — وماذا أسمع وماذا أرى أيها النذل الجبان . لا سمع ولا وعي . لست افكر ، بل لا أطيق الافتكار ، في أن لي أخاً ، لأن ذلك يروعني ، فلم يبق لي الا رغبة واحدة ، وهي أن لا أسمع لك صوتاً . بل تخمد انفاسك ، وتواري رمسك ، فيرتاح قلبي وأطمئن ، لأنك أعدى عدائي اليوم . وأنت تضربني في أقتل مقاتلي ، وليست خطيتك عرضية . بل هي

مهنة تستغلها . فالرحمة المسبغة عليك خطية هي . والموت ستر لك ولامثالك

قالت ايزابلا ذلك وخرجت من حجرة اخيها المظلمة وهي تنتفض انتفاض الملسوع . أو انتفاض الطير الذبيح . وقد صبغت حمرة الغضب وجنتيها فزادتها جمالاً وهيبة ، وكانت عيناها تتألقان كعيني فهد ثائر ، ولو أنها أمسكت رجلا في تلك الساعة لمزقته تمزيق الاسد الهصور حملاً رخصاً . فكأنها خرجت عن طورها النسائي ، وصارت دبة ثكولا ، تبغي الانتقام والاجهاز على الخصيم . حتى ان من يراها كان يهابها ويحترس من مخاطبتها لانها في حال هي أشبه بالجنون منها بالعقل والاعتدال .

وكان كلوديو يناديها باكياً ، وهو مطروح على التراب ، فلم تشأ أن تسمع مخافة أن تؤثر في نفسها حالته الذليلة . فاغمضت عينيها عن رؤيته ، وصمّت اذنيها عن سمعه ، واقفلت أبواب قلبها عن عواطف الحنان النسائي لئلا يجرها الى ما لا يحتمل ولا يطاق .

(٤) نقطة تحوّل فى سير الامور

قد مرّ بك ان الكاهن لودويك كان في مخبأ يسمع منه ولا يُرى ، بل لم يعلم الشقيقان بوجوده ، بل ظناه قد خرج . فلما بلغ الحال هذا المبلغ بينهما ، وخرجت ايزابلا على ما وصفنا ، وقد أخذت الحماسة والغضب منها كل مأخذ ، وقد انكسر قلب اخيها كلوديو أي انكسار ، وهي ناقمة على كلوديو ، وعلى انجلو ، وعلى الوجود بأسره — في تلك اللحظة — برز الكاهن لودويك — ذلك الشيخ الوقور — امامها . ولأول مرة وقعت العين على العين على ادنى من قاب قوسين . وللمرة الاولى التقى البطلان

وسنرى ما سيكون من امرهما ، وهو مدار هذه الرواية ، وغرض فصولها . أما الآن فنكتفي بالاتيان على ما كان منهما في هذا الملتقى . دنا الاب لودويك من ايزابلا رابط الجأش . وقد ملأ الحنان الابوي كل جارحة في صدره . فلاح لها على جلالة قدره ، كملك سموي . فكأنه والدها قد عاد من لحده : فقال لها : —

مهلا يا ابنتي ، فان لي كلاماً معك ، فقد سمعت حديثكما ، وعرفت واقعة الحال بحذافيرها ، وأرى أن دواءكما عندي ، فصبراً ريثما أرى كلوديو واسكن روعه ، ثم أعود وأراك ، لاتمام الواجب الخطير في وقته . فوافقته ايزابلا على ذلك ، ولبثت تنتظره وهي تصعد الزفرات ، وقلبها يخفق ، كأنها خارجة من معركة حامية ، فدخل الكاهن الى حجرة كلوديو ، فرآه في حال مذلته ، وقد ستر وجهه بيديه خجلا ويأساً ، كأنه لايمكنه أن يرى كائناً من الناس ، فأكد له الكاهن بالطف عبارة ان انجلو لم يعن ما قال لايزابلا . فلم يكن يراودها ، بل كان يمتحنها ليكون له رأي صحيح في طبائعهن . فلو أنها اجابته الى ما طلب لما أطلقك ، أقول لك ذلك عن يقين لانني كاهنه واعرفه كما أعرف نفسي . فلا يغرنك مفهوم كلامه ، ولا تعلق قلبك على هذا الكلام ، فتعتقد ان حياتك معلقة على تسليم ايزابلا بطلب انجلو . لا ياعزيزي ، ذلك ليس هو الصواب ، فالواقع هو انك ميت ، ففي ذلك فكر ، ودع ما سواه من الوساوس والاوهام . واني سأعود اليك واساعدك بعد ما أهدىء ثورة نفس ايزابلا ، وحين ذاك سأستوفي الكلام معك ، فتقبل الحكم المبرم بالرضا وتبرح هذا العالم شريف النفس

فاجابه كلوديو انه آسف جداً لانه أغاظ ايزابلا ، بعد ما ازعجها في

خدمة شاقة كلفتها في حضرة انجلو ما كلفتها ، وانه انما يروم أن يستغفرها عما بدر منه من اعراض النذالة والدناءة ، فهي اشرف من أن توصم بعار ، وانا كاره الحياة ، ولا أريد أن أعيش بعد ، وأعظم أمانيّ هو الموت الذي يستر عينيّ فلا أرى الذين جنيت عليهم ، فارجو منك يا أبت أن تبلغ شقيقتي ايزابلا ذلك وان تقول لها اني ندمت على ما فرط مني ، واني أوثر رضاها وراحة قلبها على حياتي

فطمأنه الكاهن ، وأكد له ان ايزابلا مرتاحة الضمير من نحوه . وانها سامحته حالما خرجت ، انما هي مستاءة من موقف انجلو امامها ، لانها تظن انه يعني ما قال

ثم تحول الكاهن الى السجان ، وهو رجل حر النفس ومنصف ، وسأله بلهجة تنمّ عن نفس مملوءة بالطهارة والنبل ، ان يسمح له بالانفراد بايزابلا بضع دقائق قال : ـ وأنت ترى ان ملابسي تضمن لك سلامة العواقب : فاجابه السجان الى ما طلب فانفرد الاب لودويك بها لاول مرة ، وشرع في محادثتها الآتية

الكاهن : هل عندك متسع من الوقت يا ابنتي لاحدثك في ما هو لخيرك وخير البشرية ؟

ايزابلا : ـ ان وقتي اضيق من سم الخياط ، فاذا اعطيتك جزءاً من الوقت فاكون قد انتزعته من شغل آخر ، أي اني اكون قد استبدلت عملا من عمل آخر

الكاهن : ـ حسن جداً فسأوجز في الكلام

: — يا ابنتي ،

أن اليد التي صوّرت جمالك هي التي ابدعت كمالك . وان الفضيلة تزداد قيمة مع باهر الجمال . لاستلزامه المزيد من الحرص والدفاع . فان الفضيلة على مالها من القدر في حدّ ذاتها فهي مع قبح الصون قليلة القيمة . لا تتفاء ما يستلزم اعلان فضلها وكمالها وقوّتها . اما التي تصون عرضها مع باهر جمالها فهي من كبريات الفاضلات . والحمد لله انك قد برهنت على انك منهن وما دمت نعمة الله القدير مستندك وروح محاسنك فلست اخشى عليك شراً . لان تلك النعمة الحافظة ستكون درعك الواقية وملجأك الحصين

لقد سرّني ما بدا منك في حضرة انجلو . واني اعلم انه خائب في مهاجمة صرح فضيلتك الذي لا يطال ولا ينال . كما تجسم كذلك نقصه التامّ وخطأه الفظيع . وذلك يملأني دهشة وحيرة ، من رجل كهذا في منصب كهذا . لانه كيف تصوّر انك ، وانت الشريفة ، تبيعين كمالك بحياة الشقيق ؟

فاجابته ايزابلا وقد انتعشت نفسها ، وشعرت انها تذوق حلاوة الظفر لاول مرة : وها انا ذاهبة لانهي الامر معه ، واقفال هذا الباب الى الابد . فاني اوثر ان اخسر حياة الشقيق بحكم الشريعة ، على ان اربح حياة مولود جديد خلافاً للشريعة . ولكن يا ابتي ، اوّاه ما اعظم انخداع سمو الدوق من هذا المارد الخبيث الكثير الطغيان والفساد آه لو يعود الدوق المحبوب ، واتمكّن من مقابلته فاخبره بما صنع الخؤون الذي ائتمنه سموّهُ على ادارة الدولة فعبث بكرامتها وكرامة مليكها . وداس ثقة الدوق به كما داس كرامة الفضيلة والانصاف . هذا الثعلب الروّاغ المتلبس بالبر وهو مملوء بالشر والفساد : فابرقت اسرة الكاهن لما رأى من منزلة الدوق عند ايزابلا ، وانها تبدي هذا القدر من الغيرة عليه والدفاع عن كرامته . فصبغت حمرة المسرة

599.12
D615

محياه ، كأنه نال اعظم ما يحلم به من دواعي الغبطة والحبور . افمن المقرّ بين الى سمو الدوق هو ام ماذا ؟ ذلك ما سألت به ايزابلا نفسها بنفسها لما رأته فيه من ظاهرات المحبة للدوق ، وانه يهمه امره كثيراً كانه اخوه او ابوه او ابنه ، او كأنه هو نفسه

ولبث الكاهن برهة صامتاً ، كأنه يفكر في حل اعظم المشكلات . ثم قال لا يزابلا ارجو انك يا ابنتي ، ستنالين يوماً ما ، بفضل ادبك ونبلك ، ما ترمين اليه من الظهور في حضرة الدوق وكشف مستورات قلبك له في ماهو لخير الدوقية وسعادة اهلها . وانك ستنتقمين بمعونته لعرضك المصون الذي يتهجم عليه الخائنون . ولكن ما الفائدة من سعيك هذا مادام انجلو في هذا المنصب . فانه يهون عليه ان يدّعي انه كان يمتحنك امتحاناً فقط يرى مقدار ثباتك . والآن اصغي اليّ فاني اود ان احول نظرك الى مسعى منتج ان شاء الله فقد وجدت حلاً لهذا المشكل . وهو حلّ قيمته فيه ومثلك يقدره . يحملني على ثقتي هذه ما اراه في نفسك من معدن الصلاح ومن اتصف بالصلاح الفطري لا يستنكف من عمل الخير للناس ، ولا سيما وذلك الخير لا يكلفه تضحية كرامته . فلا اراك تستنكفين من صنع الخير لسيدة أسيئت معاملتها ، واناخ عليها الدهر بكلكله . وفي الوقت نفسه لك في خدمتها اعظم ما ترمين الى نيله من الاغراض ، اعني انقاذ حياة اخيك وصيانة عرضك . ومتى عاد الدوق الذي ندعو بسلامته ، وعلم ما فعلت فانه سيسر بك سروراً عظيما . فاني اراك تذكرينه بالاحترام ، وتودين اطلاعه على واقعات مملكته

ايزابلا : — اوضح ما تريد يا ابت ، ما هو التدبير الحكيم الذي تريد

ان اقوم بانفاذه ؟ اني مستعدة لكل عمل مفيد للآخرين ، اذا كان عمله لا يجني عليّ ، ولا يمس سجيتي الادبية بسوء

الكاهن :لاغرو ان تكون فيك هذه الجرأة ، وهذه البسالة . فتحملك المروءة على تجشم المشاق في سبيل خدمة بني جنسك فان الرغبة في خدمة البشرية تتناسب مع صلاح النفس وطهارة الوجدان وتلازمها . ولما كانت فيك ، والحمد لله ، هذه النزعة فلا ارى ما يمنعني من كشف خطتي آملا منك تطبيقها

(٥) التدبير الحكيم

انك تعرفين مريانا ، اخت فردريك الجندي الباسل ، الذي غرق في البحر من مدة

ايزابلا : — اعرفها جيداً ، وهي ذات سمعة حسنة . واني آسفة جداً لما انتابها

فلما استدرجها الكاهن في الحديث الى هذا الحد ، واشتغل قلبها بشؤون الغير عن شؤونها الخاصة ، وراقت افكارها روقا تاماً مما اثار في نفسها عاصفة الغضب فتحولت الآن الى حال الهدوء العادي ، كأنه لاشيء يشغل قلبها ، واستيقظت فيها عاطفة الاحسان وحب الخير والشفقة على الآخرين ، التي تتصف بها النفوس الكريمة ، ومن شأن النفوس الحرة سرعة التحول من حال الغضب الى حال الرضى ، ولاسيما اذا كانت مثيرات الغضب في النفوس البريئة عوامل شريفة فيصح فيها قول الشاعر : —

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلى من طبعه الغضب

فكان سمو نفس ايزابلا ضامناً سرعة عودتها الى حال السكون والهدوء. اقول لما صار ذلك هان على الكاهن ان يصارحها بالخطة التي وطن النفس على تطبيقها فقال : —

كان انجلو قد خطب مريانا المذكورة ، وذلك قبل خمس سنوات. وكانت مريانا ، وما زالت ، تحبه حباً شديداً ، على ما أعلم . وكانت الامور جارية بينهما مجري حسناً ، حتى كاد القران يتم . ولكن « عند صفو الليالي يحدث الكدر » ففيما أخوها فردريك الباسل — وياشديد أسفي عليه — قادماً بالسفينة ، يصحب جهازها الثمين من بلاد اسبانيا ، غرقت السفينة بما فيها من ثياب وحلي ورياش ، وخسرت مريانا خسارة مزدوجة ، اخوها وارزاقها. فصاحت ايزابلا قائلة يالها من مسكينة .

الكاهن : وسترين أنها خسرت اكثر مما تظنين . فانها خسرت قلب انجلو . وانقلب خصما وعدواً لها . وانكر حبها ، وقطع علاقته بها . وادعى أنها خائنة سفيلة . وهو كاذب في ما ادعاه . وعوض تعزيتها ومسح دموعها في حال كهذه ، ومشاركتها في الشعور في ساعة محنتها ، استغل الحادث شر استغلال ، إذ غدر بها ، وهزأ بحبها ، وقلاها . وما زال الى الآن ، فزادها بذلك ناراً على نارها . وأضاف حزناً الى أحزانها . فخابت آمالها وأصبحت في حال تسر عدوها وتكدر صديقها . هذا هو انجلو الذين تشكين سوء صنعه معك . فانه نكث بالعهود ، وحنث بالوعود ، وهجر خطيبته وهي تذرف سخين المدامع على سوء حالها . فجزى حبها شر جزاء ، وستر خيانته بالمين والافتراء . وسيج على تلك النفس الطاهرة بالآلام والأحزان . وهو كالصخر لا يرق ولا يلين .

ايزابلا :— ما أحب الموت الى تاعس كمريانا ، وما أجدر خؤوناً كانجلو بشر العواقب ؟ . وما أفظع ما ينطوي عليه فعله هذا من الخساسة واللؤم . فكيف يمكن أن تنجو مريانا من شر جحوده .

الكاهن :— هذا هو عملك الخاص ، الذي لاجله دعوتك . وهي المهمة التي تنتدبك اليها العناية الصمدانية . واذا قمت بها خير قيام ، كما أرجو ، فانك ، ولا شك ، لفائزة بنجاة اخيك ، وانقاذ مريانا ، مع صيانة سمعتك من كل عيب وكل عار . أما الصورة التي أعرضها عليك لتطبيقها فهي هذه .

ان مريانا زوج شرعية لانجلو . وهي لا تزال أمينة له ، محتفظة بحبه . لان النفوس الطاهرة لا يحلو لها المين والخيانة في حبها واخلاصها . وتزيدها اساءة المحبوب أمانة له حرصاً على فضيلتها ان تتزعزع برياح خارجية . كما أن الماء من طبعه الجري منحدراً ، هكذا النفوس البريئة طبعت على الامانة والاحسان ، وحفظ العهود ، ومكارم الاخلاق . فتحب مريانا انجلو حباً جماً ، لا لجر مغنم ، ولا لدفع مغرم . بل مطاوعة لعوامل خلقية في نفسها

اذا لم يكن حفظ الوداد سجية فلا خير في حبّ أتى بالتكلفِ

فمريانا والحالة هذه ، شريفة ، تستحق المساعدة والمناصرة ، ان المياه الدافقة لا ترد ها الحواجز التي تعترض مجراها ، بل تزيدها قوة بحكم تجمعها وراء الحاجز . هكذا مريانا لم يزدها جفاء انجلو وخيانته الا حرصاً على حبه وتشبثاً بالامانة والاخلاص . فهي تود من كل قلبها الوصول اليه والحصول عليه .

جنّنا بليلى وهي جنّت بغيرنا وأخرى بنا مجنونة لانريدها

لما وصل الكاهن الى هذا الحد من التصوير ، والوصف المثير العواطف

امتلك شعور ايزابلا . ومن طبع النفوس الفاضلة الاستسلام للحق والمنطق وحب الانصاف . ولا سيما وان عواطفهن رهينة الشفقة والرأفة بالمظلومين . فتحوّل ما كان في نفس ايزابلا من الغضب على انجلو واخيها كلوديو ، الى عطف واشفاق على مريانا البارة ، ورغبة صادقة في خدمتها .

فلما آنس منها الكاهن ذلك تقدم خطوة اخرى في اعلان خطته ، قال

اسمعي يا ابنتي ، انك شريفة ابية ، ولكن مسلكك عقيم . وباستمرارك فيه خسارة اخيك واعدامه . مع ذلك مريانا مهجورة ، وانجلو شرير ، وأنت ناقمة . ولكنك اذا سمعتِ لقولي امكننا مداواة كل هذه الادواء بدواء واحد . فيعيش اخوك ، وتتحول احزانك ، وتفوز مريانا ، ويصطلح انجلو

فزاد ذلك الكلام ايزابلا رغبة في معرفة ذلك العلاج . بل زادت رغبة في عمل ما يقترحه الكاهن . فقد ملأت مكانته قلبها ، وحلت محبته جوارحها . وايقنت انه رجل بار وصالح ، فلا يطلب منها ان تعمل الا ما هو شريف . هذا هو سر السلطة الحقيقية في العالمين : أن لا تكلف الاخرين الا ما هو شريف وعادل وطاهر ونافع وممدوح :

فصمتت ايزابلا انتظاراً لما يمليه عليها الأب لودويك فقال لها .

عودي الى انجلو . نعم عودي . وقولي له انك قبلت باجابة سؤله ، وزيارته ليلا . ولكن بثلاثة شروط

الاول : أن تكون مدة الاجتماع قصيرة

الثاني . وان تكون المصابيح مطفأة ، والنور معدوماً تقريباً

الثالث : وان يكون الكلام همساً ، دون صوت مسموع ، بل من الفم الى الاذن وان يكون الاجتماع ، فوق ذلك ، في مكان موافق بمعزل عن

أعين الرقباء . فاذا تمّ ذلك بينكما ، ولا اراه الا تاماً ، فلاقيني عند مريانا ، فترسلها مكانك ، فيظن انجلو أنها ايزابلا ، فلا يميز بينها وبينك في جنح الظلام ، فاذا فعلت ذلك وقضى لبانته ثبتت زوجيتها ، فلا يمكنه التبرؤ منها بعد ذاك . وليس في الامر خطية ، لانها زوجه ، وقد قلاها بلا سبب . فلا نحن نخطيء بالجمع بينهما ، ولا هي تخطىء بتلك الزيارة . وانت ترين انك بذلك ترجعين اخاك كلوديو . لأن انجلو وعد انه يطلقه بهذا الشرط ومع ذلك تبقين طاهرة الاذيال حرة الوجدان . فما قولك في ذلك ؟

ايزابلا — بورك فيك يا ابت . فان الفكرة التي ابتكرتها لهي فكرة صالحة . وقد حازت كل رضاي واستحساني . واني ارجو من الله ان يكون في تطبيقها خير عظيم لمريانا . لاني أراها مظلومة ظلماً فاحشاً . وما دام الامر يتم دون مس كرامتي وفيه اطلاق سراح كلوديو ، واجتماعه بحبيبته مريانا ، فلا اراني الا فاعلة ، طبق مشورتك الصالحة . وها انا ذاهبة الى انجلو ، لأعده بما رسمت انت لي . على ان تصحبني بادعيتك البارة ، وسأوافيك بما يتم عليه الاتفاق في بيت مريانا بعد ساعتين او ثلاث ان شاء الله

قالت ايزابلا ذلك ومضت الى انجلو . والكاهن يرافقها بقلبه وصلاته فقد كان له قلب ولا كقلوب الكهان ، وصلوات ولا كصلواتهم ، كما ستعلم

(٦) مصادمة الظاهن ولوشيو المزّاح

ما كنت أود أن اخرج عن سياق الحكاية ، والدخول في ما هو خارج عن موضوعها ، أريد بذلك التعرض للوشيو ، وما جرى بينه وبين الكاهن . ولكنك سترى ان في ذلك ارتباطاً بصورة الواقعة بتمامها . وعليّ أن اكون

أميناً في اثبات ما رواه واضع هذه الرواية فاقول.

كان لوشيو خفيف الروح ، مزّاحاً ، عديم الرصانة . ضعيف المبدأ . فهو يمثل كثيرين من أبناء هذا الزمان بانه يمسك الحبل من طرفيه . ولا يهمه كيف يقع على الارض . بل قانونه المتبع «در مع الدهر كيفما دار» كان لوشيو يحدث بعضهم حديثاً سخيفاً سافلا . فلما انتهى من ثرثرته كانت ايزابلا قد برحت ، على ما مر بك تبيانه . وقد تحول الكاهن قاصداً الذهاب الى بيت مريانا . فاذا بلوشيو يقف في طريقه . ويعترضه . فحدثت بينهما المحادثة الآتية

لوشيو : — الله معك ياراهب

الكاهن :— ومعك ياولدي

لوشيو :— ما وراءك من الاخبار ياراهب

الكاهن . — سر في طريقك يارجل . قال الراهب ذلك مخافة الاشتباك بالاحاديث الفضولية . وهنالك ما يوجب الاسراع . ثم عطف الكاهن قائلا ليس عندي شيء من الاخبار .

لوشيو : — يقولون أن الدوق انضم الى قيصر روسيا . وبعضهم يزعم أنه في رومية . وآخرون أنه في بولاندا . فما ظنك في الأمر أين هو ياترى؟

الكاهن لا اقدر أن اقول . ولكن أينما كان فنسأل الله أن يكون معه

لوشيو (ضاحكا) : — قد كان منه جنوناً تولية انجلو ، الذي أشهد لك أنه خير منه. فقد سلب الدوق المدينة ، واختلس حقوق الآخرين . وان انجلو بايعاز منه سقط في هذه الهوة وتعرض لأمر لا يعنيه. فما ضره أن يكون هنالك فاحشة والدوق نفسه استاذ الفاحشين ؟ نعم انه فاسق. ألا تظن كذلك ياراهب؟

الكاهن :— الفحشاء رذيلة تجب مقاومتها . فلا أرى الدوق مجنوناً في تولية انجلو وايعازه اليه أن يضع حداً لما نراه في العاصمة من الفحشاء

لوشيو : — نعم انه رذيلة . ولكنه رذيلة عامة . حلفاؤها اكثر عدداً من شعر لحيتكم ياحضرة الراهب فيستحيل استئصالها . إلا باستئصال بني حواء من سطح الغبراء .

ومن معلومات قداستكم أن الداء إذا عم حسب مشروعاً. فان الابرص نجس حتى يعم البرص جسمه كله . وحينذاك يحسب طاهراً . ومتى عمت عادة من العادات صارت مشروعة ومقدسة . مثال ذلك تقبيل أيديهن . هو عار في الشرق وأدب في الغرب . وتقبيلهن عار عندنا وأدب في روسيا . هكذا صاحبك المجنون الفاسق ألا يرى أن الفحشاء كادت تحسب شريعة في فينا ، وأن العفاة نظير قداستكم مجرمون ؟ يقولون أن انجلو هذا لم تلده بنات حواء كغيره من الناس .

الكاهن :—فكيف وجد ؟

لوشيو :— يقول بعضهم أن جنية البحر لفظته كما لفظ الحوت يونان — سيدنا الراهب الاسود قديماً — وبعضهم يزعم أنه ولد من سمكتين قويتين ولكن الذي نؤكده هو أن بوله يتحول جليداً في الحال . وهو مخلوق شاذ كل الشذوذ أي انه خنثى لا ذكر ولا أنثى .

الكاهن :— أراك مزاحاً كبيراً ياهذا ، وجريئاً في الكلام

لوشيو :— ما هذه القسوة التي في قلبه؟ أفينتزع حياة كلوديو لأهون سبب ؟ واني أعلم أن الدوق قبلما يعلق فاسقاً واحداً على الاعواد ينفق على

الوف من النغول . وعنده ميل كبير اليهن ، وذلك يغرس في قلبه الشفقة ، فلا يقضي باعدام الفاسقين

الكاهن : — لم اسمع قط أن في سمو الدوق ميلا الى الفحشاء ، أو انه مغرم فيهن أو إنه مهتوك الاستار

لوشيو : — انك مغشوش ياراهب ، وقد خيم الجهل على عينيك وقلبك لكثرة الصلوات واكل الزيت ، فصار قلبك كثوبك الاسود ، لا ينفذه النور .

الكاهن : — اني أعرف سمو الدوق شخصياً ، ويستحيل أن يكون فاسقاً

لوشيو : — ومن هو كلبك الدوق حتى تقول فيه هذا القول ؟ أليس هو مناهزاً للخمسين ، وقد كان يخفي حظاياه في خزانة الدفاتر . واسمح لي أن أقول لك إنه سكير أيضاً . فاستشاط الكاهن غضباً ، وقال للوشيو : انك تخطيء كثيراً في الكلام بغير حساب ، وتقول في سمو الدوق ما لا تعلم غير هيّاب

لوشيو : لقد كنت في حلقته ياراهب ، وكان الدوق ولداً فاسقاً وأظن اني اعرف سبب انسحابه من الهيئة الاجتماعية

الكاهن : — وما هو ذلك السبب ؟ قل ان كان عندك ما يقال .

لوشيو : — أرك تتحمس كثيراً في انتصارك له ياراهب . فهل أقول شبيه الشيء منجذب اليه ؟

الكاهن : — قل ما شئت . ولكن اخبرني ما السبب لانسحاب الدوق من الهيئة الاجتماعية كما ذكرت الآن ؟

لوشيو : — لا لا . هذا سر من الاسرار . لا أقدر أن افشيه . بل

احفظه طي الصدور . أفلست معلم اعتراف ياراهب ؟ أو لا تعلّم الناس حفظ ما أودعوا من الاسرار ؟ فهذا سر اعتراف عن صاحبك الدوق ، يُعلم ولا يقال علاوة على ذلك ان الدوسيه التي فيها هذه الامور ليست معي بل في البيت ، وهي تثبت أن الدوق سوف يصير حكيما

الكاهن :— يصير حكيما ؟ لا ريب في أنه حكيم

لوشيو :— بل هو ولد ضعيف المدارك عديم الوزن.

الكاهن: —اما انك مخطيء ، أو انه حسد جنوني فيك . فان مجرى حياة الدوق ، والعمل الذي اتمه ، يهب له اعظم شهرة . واذا نزل الى بوتقة الامتحان فلسوف يبرهن لحساده أنه عالم كبير وسياسي خطير. وانك عن جهل مطبق تتكلم . واذا كان عندك علم فالتهتك الذي استولى عليك قد افسد عقلك

لوشيو :— اني اعرف الدوق ياراهب واحبه

الكاهن :— لو كنت تحبه لما قلت فيه سوءاً . لان المحبة لا تسيء ولا تقبح ولا تقول شراً

لوشيو : — دع عنك هذا الكلام الفارغ . فاني اعرف عن هذا الدوق ما لا يقال

الكاهن :— يشقّ عليّ أن اسمع منك هذا الافك والبهتان عن سموه ، وانك لتهرف بما لا تعرف . فاذا عاد الدوق الى فينا (كما نطلب في صلواتنا) فاتمنى لو أنك تكون قادراً على الظهور في حضرته وتقول هنالك ما تقوله هنا . واني ملزم أن أراك . وارجو أن تتفضل علي باسمك .

لوشيو : — اسمي لوشيو ؟ والدوق يعرفني جيداً

الكاهن :— وسيعرفك اكثر ، اذا كنت اعيش حتى اقدم لسموه تقريري عنك .

لوشيو :— ذلك لا يهمني يا راهب . ويجب ان تعلم ان الذنب الذي دانوا عليه كلوديو هو شيء زهيد بالنسبة الى ما فعلت ، ومع ذلك لم يسألني احد .

الكاهن :— وهل اتخذت لك صاحبة وولدا

لوشيو : — من كل بد . قد اتخذت صاحبات كثيرة ، والاخيرة لي منها ثلاثة أولاد وهي مرغريت رزنر

الكاهن :— وماذا عملت بهم ؟

لوشيو :— تركتهم ووالدتهم . وان شاء الله وعشت فسأفتش عن واحدة غيرها وغيرها وغيرها وهكذا الى ما شاء الله

ولا تنس ياراهب ان صاحبك الدوق يأكل لحماً في يومي الاربعاء والجمعة . وهو يقبل فم حظيته بعد ما يأكل الثوم . فقل له انني قلت ذلك فيه — الى اللقاء ياراهب . !

فاتقدت مراجل غضب الأب لودويك ، بسبب ما قاله لوشيو في سمو الدوق فنسنتو . ولم يعرف الحامل له على ذلك . ولو أنه أخو الدوق أو أبوه ، لما كانت غيرته عليه أوفر منها الآن . فلا بد من سر في الأمر نود مع القاريء أن ينكشف . ولو لم يكن الاب لودويك في سياق مسعى خطير يضطره الى الذهاب سريعاً الى بيت مريانا لأطال الكلام مع لوشيو . وربما كان اشتبك معه في نزاع لهذا السبب . أما الآن فهو مضطر الى الاسراع . فيلوح لنا أنه انما أجّل المناقشة تأجيلا ولكنه لم يحذفها من دفتر وقائعه

الفصل الرابع

(١) في بيت مريانا

وصل الاب لودويك خندق كرانج ، حيث تقيم مريانا الوديعة الروح . وكانت قد خرجت الى النزهة ، وشرعت تغني الابيات التالية

لا تردّد مقالاً من خؤون قد أساء
لن ترى عيناي وغداً دأبه ظلم النساء
ان قبلاتي وحبي لحبيبي في المساء
هي ختم الحب عندي وعزاء البؤساء

ولقد غنت من قلب مكلوم ، والكاهن يسمعها ويدرك مغزى كلامها ، وهو يهز رأسه كلما قالت بيتاً ، فلما رأته اعتذرت له عن غنائها ، وان انشادها لم يكن الا تأسياً على نحو قول الشاعر

لا تحسبوا ان رقصي بينكم طرباً فالطير يرقص مذبوحاً من الألم

فاجابها الكاهن جواباً لطيفاً جمع بين التعزية والحقيقة

قال : — للنفس في شكواها تأس وانتفاع . ثم سألها

هل كانت في هذا الموضع زمناً طويلا ؟

فاجابته : اني هنا كل النهار . قال هل سأل احد عني ؟ الاب لودويك

قالت : كلا

فجلس الكاهن وشرع يحدثها ، ويُعدّ قلبها للدخول في حال اختبار جديد ، وهي لا تدري من الامر شيئاً . انما ظنت ان الاب الروحي ، الغني في اختباراته الروحية ، يملي عليها نظريات فلسفية مشجعة . فكانت

تشكره وتقول « اني أمة الرب فليكن لي كقولك » . ذلك لانه كان يمنيها بفوزها بعد فشلها ، وانها ستنال من الدنيا بغيتها ، فتحصل على الرفعة بعد الضعة والمجد بعد الهوان . الى غير ذلك من احاديث الكهان والانبياء .

واذ هما في الحديث وافت ايزابلا عائدة من عند انجلو ، ودلائل الفوز بادية على محياها . فقصت على الاب لودويك ما جرى لها مع انجلو . وانه لما رآها قال لها : أنا علمت انك ستعودين : ثم بسطت له صورة الاتفاق بينها وبينه قالت : — لبيت انجلو حديقة ، الى جانب قصره . وللحديقة سور من القرميد الاحمر ، يتصل بها كرم واسع ، بين الحديقة وبين الكرم باب يفتح بهذا المفتاح الصغير . قالت ذلك وأرته المفتاح . ثم قالت : — وللكرم باب خارجي أيضاً يفتح بهذا المفتاح الكبير . وقد اتفقنا على ان يكون الاجتماع نصف الليل تماماً ، في الحديقة بطريق الكرم . وان يكون الاجتماع حسب الشروط الآنف ذكرها . ولدى براحي اهمس في اذنه هذه الجملة « الآن اتوقع منك حرية اخي » هذه هي صورة الاتفاق بيننا . وأنا على يقين من اني عرفت كل جزء في بيته وحديقته وكرمه . لانه طاف بي كل اقسامها مرتين . وحصلت على ارشادات كافية عن كل شيء . واتيت لأبلغك الأمر ولاخبر مريانا كيف يجب ان تتصرف حتى لا تعرف ، فتكون هي ايزابلا في حسبانه :

فأوعز الكاهن الى ايزابلا ان تنفرد بمريانا وتملي عليها كل هذه التعليمات مرة ومرتين حتى تتأكد انها فهمت كل شيء . وان تهيء نفسها لتكون في الكرم في الوقت المعين تماماً فاختلت ايزابلا بمريانا . واما الكاهن فجعل يتمشى في فناء البيت وهو يردد الابيات الاتية

من له روح طهور فهو برٌّ في القضاء
وعلى اقوال فيه ختم اجناد العلاء
وله الفصل بدعوى من تزكّى أو اساء
فلمن احسن صنعاً كل خير وثناء
ولمن اساء عمداً شر انواع الجزاء
ضوعف الويل لقاضٍ قد تردّى بالرياء
فهو شيطان رجيم ان يكن ضمن الخباء
ظاهر البرّ كذوب من اضل السفهاء
وله ثوب خداع من نسيج العنكباء

***

وبجنح الليل يلقى من فعالي والدهاء
وكما اساء للنا س كذوب سيساء

(٢) في السجن

كان ذلك الليل مملوءاً بالمدهشات . وانطوت حوادثه على غرائب لا تحدث في أجيال متطاولة . وأهمها ما جرى للسجان مع الكاهن مما نأتي الآن على وصفه :

ذلك الكاهن الحكيم لم يهمل كبيرة ولا صغيرة . فكان يتتبع سير الحوادث ، ويتعقب هذا وذاك ، على صورة لم تخطر على بال . فجاء السجن بعد نصف الليل ليتدارك الامور ، لئلا يحدث ما ليس في الحسبان . ولولا مجيئه وتداركه الأمر لقضي الامر واعدم كلوديو قبل ضوء الصباح

جاء الكاهن ليرى نتائج سعيه الحكيم . وليكون مطمئناً على حصول تلك النتائج ، وبعضها ، مما نذكره الآن ، سلامة كلوديو ، وربح قلب ايزابلا . فهل ذلك مضمون او لا ؟ . واذا كان لا فماذا يمكن ان يعمل في جنح الظلام ؟ . هذه كانت شواغل الكاهن ، وهي سبب احيائه ذلك الليل

وكان السجان قد وقف على حركات الكاهن في النهار البارح وسمعه يعظ جولييت وكلوديو . فقدره قدره واحله محله من التجلة والاحترام . ويجب ان اقول ان السجان كان على جانب عظيم من الفراسة ، فادرك ما في الكاهن من ظاهرات العظمة . فهو كاهن وليس كالكهان . فصار يرحب به كلما زار السجن ، ويفسح له المجال للخدمة ، ويثق به ويقص عليه حوادث المجرمين والاحكام الصادرة عليهم ، ويطلعه على مشاكل وظيفته . شأن النفوس الامينة تثق بمن شامت فيه الخلق الحميد والنفس الفاضلة . ويجب ان اقول ان السجان لم يكن من رأي انجلو في امر كلوديو . فكان يرى انه لا يستحق الاعدام . وان الانذار كاف في مثل هذه الحال . لان كلوديو لم يسىء الى احد ، ولم يرتكب جرماً يوجب الحد . لهذا كان يهون عليه ان يساير الاب لودويك .

ثمّ ان رجلا كالسجان لا يرى من الناس الا الجانب الاسود . فهو يعاشر المجرمين ليل نهار . ويحتك بالموقوفين رهينة الاعدام . ففي هذه الاحوال تجوع نفسه الى محادثة الفضلاء ومعاشرة الكاملين . والنفوس الحرة تشتاق الى امثالها شوق العيون الى المرئيات الجميلة . فلما طرق سمعه تحية الاب لودويك في منتصف الليل خفق قلبه سروراً ، وانشرح صدره بملاقاته فردّ تحيته باحسن منها ، وجلس يحدّثه ويثني عليه لافتقاده النفوس الهالكة

في هذا الليل مضحياً براحته في سبيلها . ومما قاله لهُ : —

اهلاً بك يا ابت . ان وجودك بيننا ينير هذا السجن المظلم، وينير قلبي الشديد الحلك مما الاقي ضمن هذه الجدران . اني اثني كثيراً على همتك العالية بهجرك لذة الرقاد وتجوالك في جنح الدجى في خدمة النفوس الخالدة . فانت الاب الحنون المستحق كل محبة واحترام . فيرد عليه الكاهن قائلا: — فلتحط بك اقدس الارواح العلوية ، ايها العامل الامين الساهر على واجباته سهر الوالدة الحنون على اطفالها . اني متى عاد سمو الدوق ، واتيح لي التشرف برؤيته فسأخبره بكل ما عرفت عنك من حسن التصرّف وارجو ان يكون جزاؤك عظيما حينذاك . والآن هل جاءك من انجلو نبأ جديد

سجان : — كلا يا ابت لا خبر ولا علم منذ رنّ جرس المساء

ك : — وهل جاءت اخت كلوديو ؟

سجان : — كلا يا ابت

ك : — اظن انها ستأتي . فيجب ان انتظرها

السجان : — ولماذا ؟ هل من خبر سارّ ؟

ك : — هكذا اظن . يقولون انه سيصدر العفو الليلة عن كلوديو

سجان : — يا حبذا لو صحت الاحلام . ولكن هيهات . فان النائب انجلو رجل جافّ ، ولاسيما في امر العقوبة . وانا اعرف نفسيته حق المعرفة فانه ابداً ضد اشواق الناس . ولا يسحب امراً صارماً اصدره ، ولا يعدل عن عقوبة المجرمين وان ثبتت له براءتهم . لذلك لا اتوقع منه عفواً عن كلوديو . مع ان الله والناس يعلمون ان هذا الرجل مظلوم . فلذا اقول لك يا أبت اني لو امسكت ورقة العفو بيدي وقرأتها بعيني فلا اصدق حواسي

ك : لا لا . ان اوامر انجلو طاهرة مع صراحتها . وبتقواه وعفافه يقود عمله ، ولو لم تكن أغراضه اصلاحية لعدّ تصرفه استبداداً ، ولكن وهو يرمي الى الاصلاح نحسبه عادلا

واذ هما في الكلام قرع الباب . ثم دخل السجن رسول انجلو ، يحمل رسالة خاصة للسجان . فظن الاب لودويك أنها رسالة العفو عن كلوديو حسب الاتفاق . وقال في نفسه ان انجلو كتبها على أثر خروج مريانا من عنده (وهو يظنها ايزابلا اخت كلوديو) . فقال الكاهن في نفسه « هذا الامر بالعفو عن كلوديو » . أو على الاقل « هو الامر بتأجيل عقوبة كلوديو » كما كان يقترح عليه المستشار اسكالوس . فطرب الاب لودويك لذلك طرباً عظيما بقياس اخلاصه لأبنائه الروحيين وبقياس اخلاصه للانسانية جمعاء ، ورغبته في الخير العام . ولم يخطر له على بال ان ذلك الأمر كان بالضد مما توقع . سلم الرسول الرسالة للسجان وأملى عليه ما يأتي : —

أن عظمة سيدي اللورد انجلو يأمرك بان تحرص على انفاذ مضمون الرسالة بالدقة التامة . وحذار ان تنقص منها كلمة أو حرفاً ، أو نقطة في حرف بل يجب عليك تطبيقها بتمامها من غير زيادة أو نقصان . وأن لا تؤجل الانفاذ دقيقة ولا ثانية :

فاجابه السجان بالسمع والطاعة

فلما برح الرسول شرع السجان يقرأ الأمر الوارد اليه من انجلو ، وهو يهز رأسه . فقال له الأب لودويك : مالك أيها السجان المحبوب ؟ ألم يأمر انجلو باطلاق كلوديو ؟ قال السجان : ألم اقل لك ان انجلو لا ينقض أمراً أبرمه وان كان خطأ ؟ فخذ واقرأ . قال ذلك ودفع اليه الرسالة . فكم

كانت دهشته لما قرأ ما يأتي : —

« نحن انجلو نائب الدوق فنسنتو

هذا امرنا اليك ايها السجان !

مهما يبلغك من نبأ فحذار أن تحيد عن اطاعة أوامرنا قيد انملة . اعدم كلوديو الساعة الرابعة صباحاً . وارسل لنا رأسه الساعة الخامسة . ثم اعدم برناردين الساعة التاسعة. يجب التدقيق في انفاذ الأوامر لان عليه نتائج مهمة وحذار التأخير والتلاعب فانك مسؤول » « انجلو »

فرفع الاب لودويك رأسه وقال : هنا كل العجب لا بين جمادى ورجب. فمن هو برناردين ؟

(٣) احوال المسجونة فى اوربا فى الاجيال المظلمة

فقص عليه السجان قصة برناردين . وليس في تلك القصة ما يسر . وخلاصتها انه رجل بوهيمي ، نشأ بفينا ، وقد مرّ عليه في السجن ٩ سنين واليوم ينفذ فيه حكم الاعدام

فسأله الراهب كيف حدث ان مرت عليه كل هذه المدة ولم يصدر الدوق في أمره قراراً نهائياً ، اما باعدامه أو باطلاق سراحه ؟ فان الاعدام بعد سجن تسع سنوات ليس من خلق الدوق ولا من عدالته على ما أعلم . فقال السجان . ان لبرناردين اصدقاء كثيرين ، كانوا يعنون بأمره ، ويوالون رفع استرحاماتهم الى الدوق لاجله . فلم تزل دعواه معلقة في المحاكم الى هذا الميعاد

وسأل الراهب السجان عن تصرفات هذا هذا الرجل السجين في

خلال هذه المدة . فاجابه السجان : كان كالسكران النائم ، مع انه محكوم بالاعدام : وفي هذه العبارة ما يغني عن الشرح الطويل. فكان برناردين عديم الاكتراث . يعيش عيشة فوضى . بلا نظام ، ولا احتساب ، ولا شعور روحي ، ولا استعداد للخلود . فهو مقبل على الموت دون ادنى رجاء في أخرى مجيدة

فأثر ذلك كثيراً في نفس الكاهن الحنون ، ورغب في الوقوف على حال تاعس كهذا يعيش ويموت بدون رجاء. وقد سره ان لديه فرصة يغنمها في هذا الليل، لخدمة نفس هالكة كنفس برناردين . فاثنى على السجان قائلا أيها السجان المحبوب ، لقد كتب على جبينك الأمانة والحزم . ولو لم اكن قد قرأت ذلك لخانتني فراستي . ولكنني بالجرأة التي تصحب المساعي المقدسة أضع نفسي في مواطن الخطر . ولذا أقول لك أن كلوديو ليس شراً من انجلو الذي أبرم عليه حكم الاعدام . ولكي أفهمك مقصدي تمام الفهم أقول لك باوضح عبارة أن تؤجل اعدام كلوديو ٤ أيام، وبعدها سيُقدم لك وافر الثناء على ذلك مع هدية ثمينة . من يقدر أن يتصور موقف السجان الامين أمام اقتراح كهذا ؟ في ذلك الوقت ، وفي تلك الحال، ومن شخص مقدس كهذا . بعد ما توالت الاوامر عليه بلزوم اعدام كلوديو قبل ضوء الصباح ، يقترح عليه الكاهن مخالفة تلك الاوامر والابقاء على كلوديو ؟

ان الكاهن تعرض للسجان في واجباته الخطيرة. فارسل هذا نظرة نقاد في محيا الكاهن ، نظرة الرجل الامين في وجه صديق محترم ، يشير عليه بما يخالف التزامه. فكيف جرؤ الكاهن على التفوه بهذه الكلمات ، وكيف يجرؤ السجان على سمعها ؟ وأين يسكن اذا خالف أوامر صريحة لا مسوّغ

لتأويلها . والرجل الامين لا تشغل قلبه العواقب بمقدار ما يشغله الحق كواجب . لان صنعة الأمانة ليست ثوباً يلبسه المرء حين يشاء وينزعه حين يشاء . بل هي خاصة الروح تلازمها كل الحياة ، وتصحبها الى العالم الآخر . هذا هو موقف السجان . انه لم يكن يحب انجلو . وهو مقتنع أن كلوديو مظلوم . وقد عارض أمر انجلو في النهار البارح قائلا : أمصمم مولاي على اعدام كلوديو بهذه السرعة ؟ فانكر عليه انجلو التدخل في الامر قائلا : ان أوامرنا اليك صريحة ، فما الحاجة الى هذا السؤال ؟ فاجابه السجان جواباً جريئاً قال : لان الاختبار علمني انه كثيراً ما يندم القضاة على تسرعهم ولات ساعة مندم . فبعد انفاذ الامر ، واعدام المحكومين ، كان قضاتهم يقرعون سن النادم . ففكرت ربما تود عظمتكم أن تتروى في أمر كلوديو قبل انفاذ حكم الاعدام فيه . حتى اذا بدا لك تعديل الحكم لا يكون هنالك داع للندم . فشجبه انجلو وقال له التزم حدك . واعدم الرجل حسب أوامرنا . ولا تشتغل بما لا يعنيك . والآن — في منتصف الليل — يؤكد انجلو على السجان أمر الاعدام ، مخافة التلاعب أو التماهل ، أو التحريف . فهذه أوامر مشددة مقرونة بالانذار ، أفيخالفها السجان ؟ فليست المسألة مسألة اقتناع ، بل مسألة واجب ومسؤولية . فكم من جلاد انفذ حكم الاعدام في رجل وهو يندب براءته وشبابه ! لذلك لما اقترح الاب لودويك على انجلو ما اقترح أجابه بكل أسف انه لا يقدر أن يسمع أمراً كهذا «مع وافر احترامي قدسكم» . ولا سيما وانجلو قد حدد الوقت والصورة وطلب رأس القتيل ، تحت طائلة أشد العقوبات

فلما سمع الكاهن منه هذا الكلام قال له : حسناً . اذا كان لا بد لك

من انفاذ أمر انجلو فاعدم برناردي الساعة الرابعة . وأجل اعدام كلوديو الى الساعة التاسعة. ولكي لا تكون مسؤولا لدى انجلو فاقطع رأس برناردين وارسله اليه . فانه لا يقدر ان يميز بين رأس هذا ورأس ذاك لان رؤوس المعدمين كلها سيان

واذا خشيت افتضاح امرك فاعصب الرأس ، وقل ان الميت اوصى قبل اعدامه بان يعصب هكذا فتجوز الحيلة . واذا نالك غير الثناء والبركة من القديس حاميّ الذي احبه واحترمه كانت روحي فداك

فقال السجان : عفواً ايها المحترم . ان واجبي لا يأذن لي بسمع هذه النصيحة . لانها ضد القسم الذي اقسمته لما استلمت هذه الوظيفة . ونص ذلك القسم يوجب عليّ ان انفذ الأوامر حسب ما قصد بها الذي اصدرها والامر صريح يطلب اعدام كلوديو ، ورأس كلوديو فلا يمكنني ان استبدله ببرناردين .

الكاهن : — ولمن اقسمت ياحضرة السجان ؟ اللدوق ام لانجلو ؟

السجان : — اقسمت للدوق ولمن يتولى نائباً عنه

الكاهن : — وهل يمكن ان يقدم رأي الوكيل على رأي الاصيل إذا تعارضا ؟ فاذا كان امر انجلو منطبقاً على مشيئة الدوق وجبت اطاعته ولكن ماقولك في ما اذا تعارضا ؟ فاي الامرين اولى بالانفاذ ؟

السجان : — لامشاحة في ان امر الدوق هو الاجدر بالاحترام على كل حال ولكن اين ذلك من واقعة الحال ؟. فاني لا أرى هنالك ادنى مماثلة

الكاهن : — ليس مماثلة بل ذاتية . فان الدوق يأمرك ان تحتفظ بحياة كلوديو

اذا قلنا للقارىء ان شعر السجان وقف في رأسه كالمسلات فقد يستغرب قولنا هذا ، ويحسب ان فيه شيئاً من المبالغة . على انه لا مبالغة ولا غرابة فقد كاد السجان يجن لما سمع ما سمع من فم الكاهن . فحدق به ليرى اعن جد يتكلم؟ او عاقل هو ام مجنون ؟ فلم يدعه الكاهن يتمادى في دهشته وجرته بل مد يده الى جيبه وقال :— خذ واقرأ . فلا بد وانك تعرف خط سمو الدوق وختمه

السجان : — من كل بد اني اعرف

وتناول الخطاب من يد الكاهن وفض ختمه وهذا نصه : —

« هذا امرنا الى السجان ماريوس ليفنتينوس

نحن الدوق فنسنتو ، دوق ڤينا وتوابعها نامركم بالاحتفاظ بالسجين كلوديو احتفاظاً تاماً ، ولا تدع شعرة من رأسه تسقط مدة ٤ ايام حتى نعود بسلام والا كانت حياتك بدل حياته »

فنسنتو (مكان الختم)

فجمد قلب السجان . ورفع نظره الى الكاهن لودويك كأنه يقول له : ما هي صلتك بالدوق حتى كان معك هذا الخطاب ؟ لكنه لم يجسر أن يفتح فمه بكلمة واحدة . لان علاقة الكاهن بالدوق تجعل له منزلة من الاحترام والمهابة فوق الحد . فقد تكون اقل كلمة من السجان في غير محلها . تجرح احساسات الكاهن ، والعاقبة وخيمة ، اذا بلغ الدوق عنه ما لا يسره لذلك حار في امره

فادرك الكاهن ذلك فيه فراسة . فقال له : —

لا تسألني أية علاقة لي بسمو الدوق فحسبك ان هذا خطه وهذا ختمه

السجان :— لا شك في ذلك ولكن . . .

فقاطعه الكاهن قائلا :— لا محل لهذه الكلمة «ولكن» فاعلم اننا نحن الكهان ، علاقاتنا فوق حدود المدارك . ولو لم تكن لنا هذه العلاقات الخارقة لما امكنا حفظ مركزنا في التاريخ مع كل مايثور ضدنا من اراء الناس ومحارباتهم الروحية . فاعلم انك اذا انفذت امر انجلو فقد خالفت امر الدوق الصريح

السجان : — استغفر الله فاني اوثر الموت الف مرة على مخالفة ارادة مولاي الدوق .

فتبسم الكاهن وقال له عوفيت من خادم امين فادع اذاً برناردين ، لأعدّه للبراح من هذا العالم . قال الكاهن ذلك ظناً منه ان لا بدمن اعدام برناردين في الحال

فدعوا برناردين فجاء الى الكاهن ، فشرع هذا يكلمه في امر نفسه وآخرته ، واستقبال الموت ، وما هو من هذا القبيل . ولكن برناردين كان ، كلما فاه الكاهن بجملة ، يقول له : ليس انا ياراهب ، ليس انا . انا لست مائتاً اليوم . فاعمل معروفاً وكلم غيري انا غير مستعد للموت . ولا اريد ان استعد . واخيراً سئم الكاهن منه ، ورده الى حجرته قائلا :—

يابرناردين ، انك غير مستعد للموت ولا للحياة . فعاد برناردين من حيث اتى وهو يجر قيوده الثقال . وقبلما خفت صوت رنين قيوده حضر الجلاد ابهورزن وطلب احضار الرجل ليعدم . فاجابوه انه نائم . ولا بأس في ايراد الحادثة كما وقعت لتصوير حالة السجون في تلك الايام

(٤) هال السجونه

ابهورزن :— اين الرجل الذي يجب ان اعدمه لقد قرب وقته وهوذا البلطة معدة فأتوا به لنقطع رأسه

أحد الموظفين :— انهض يابرناردين . لقد حان وقت الاعدام

برناردين : — لا . لا لا أريد أن اموت . أريد أن انام الآن .

ابهورزن : — عجلوا فقد أزفت الساعة ولا يمكننا التأجيل

الموظف :— دعوناه فلم يحفل بأمرنا

ابهورزن :— جروه جراً . لم يبق للانقاذ إلا خمس دقائق

الموظف :— تفضل انت وجره

موظف آخر :— لا حاجة الى ذلك فها هو قادم تدلنا على ذلك رنة قيوده وهو يمشي

برناردين :— ما الخبر ؟ ماذا تريدون ؟

ابهورزن :— الخبر انك ستعدم يابرناردين . اعني اننا سنقطع رأسك بهذه البلطة . فودع الحياة بالتوبة والصلاة

برناردين :— خسئت ياوجه النحس . لا أسعد الله لك صباحاً ولا مساء . أأنا مستعد للموت ؟ ألا تعلم اني كنت اشرب كل الليل ؟

ابهورزن :— حسن جداً . فان من يشرب كل الليل ، ويعدم في الصباح ينام براحة كل النهار

برناردين :— لن أعدم . فاذهب خائباً

ابهورزن :— تهيأ يابرناردين . ويجب أن تكون مؤدباً لكي نقطع

رأسك قطاً جميلا . وبعد ذلك تنام ويلذ نومك . وهوذا الأب لودويك يعدك للموت .

الأب لودويك :— أتيت بخدمة المحبة لارشادك ومساعدتك في ولوج دهاليز الأبدية .

برناردين :— قلت لك يا راهب اني غير داخل في دهاليزك هذا الصباح فاذهب وقد غيري .

الكاهن :— اعدموه بدون اعداد . انه ساقط من نعمة الله . فيالك من قلب حجري لا حس ولا حياة . وفيما هم في حجاج ولجاج اذا بأحد الخدم يقول ان راجوزين مات الساعة . فحمد السجان الله . لانه قد حل المشكل بموت راجوزين ، فانه في سن كلوديو ، وقدّه وشكله وسحنته . فقال الكاهن « قضي الأمر الذي به تستفتيان » .

فأخذ السجان الجلاد ابهورزن الى حجرة راجوزين . فقطع رأسه . وأرسلوه الى انجلو باعتبار أنه رأس كلوديو . ولا أحد رأى الرأس يشكّ في أنه رأس كلوديو . وبهذه الواسطة حل الاشكال ، وعاد برناردين الى حجرته ونام نوماً هنيئاً

(٥) ايزابلا في مطلع الفجر

والذي أقلق الأب لودويك مجيء ايزابلا في مطلع الفجر تسأل عن كلوديو . فوصلت السجن على أثر ارسال رأس راجوزين الى انجلو . وسألت الكاهن هل عفي عن اخيها كلوديو حسب الاتفاق بينها وبين انجلو؟ فاجابها الكاهن ان أخاها قد اجتاز حدود الشقاء ، وهو الآن في مأمن من

كل خطر ، في حضن أب الاباء ابرهيم . ثم قص عليها حكاية الليل ، وما كان من أمر انجلو ، وأنهم حسب أوامره قد ارسلوا اليه رأس كلوديو الآن.

فلما سمعت ايزابلا ذلك صاحت بالويل والثبور وعظائم الامور . لانها اكدت صحة ما قال الكاهن . وأيقنت ان اخاها كلوديو قد لقي حتفه فتجلت لها شناعة نفس انجلو باقبح مظاهرها . لانه خان العهد ، ونكث بالوعد وأباح واستباح . وهو مع ذلك يتمتع بسلطة الآمر الناهي . بل يزعم انه يصلح البلاد ويسعد العباد ، فقالت : —

واشقيقاه . وامصيبتاه. ويلاه يا كلوديو . ترملت ياجوليت . فُقدت يا ايزابلا هنيئاً لكما يا والديّ لانكما نجوتما بالموت من هذا المصاب الاليم . يالك من عالم خاضع للشر والافك والفساد . أف لك من نائب خؤون ، تشغل مناصب القضاء ، وانت بلاء على القضاء . صبي سخطك ايتها السموات على الوغد اللئيم ، الافاك الزنيم. ولتنكشف الستور عن فضائح الظالمين. رباه انك ترى مظالم المستبدين الفجار وتصمت ، ليتك تشهد لذاتك بصب السخط على المنافقين

ويلاه . ويلاه . واشقيقاه . اني لآسفة شديد الأسف لاني كسرت قلبه . وأمتّه ميتة نذل جبان . فودعته من هذه الدنيا شر وداع .

ابتي يا ابتي . ها قد سمعت لك ، وعملت بنصحك ، ولبست ثوباً لم البسه ، ولا أمي من قبلي . واقدمت على ما لم أخلق له . ووقفت أمام انجلو موقف العاهرة ولست بالعاهرة . فماذا كان منه ؟ أفلم يهزأ بي شر هزء ، وداس العدالة والانصاف اولا واخراً . وبعد قيامي بالشرط انقلب شر منقلب وأراني أعود بصفقة المغبون ، واخي تحت الثرى

الكاهن : — خففي عنك يا ابنتي فقد بلغني في هذا الليل — بواسطة رئيس رهبنتنا المقدس — ان الدوق عائد في هذا النهار . فكفكفي الدمع وقومي للنضال . ان كيل الصبر قد طفح . وما طفح فاض ، فلا بد وان يراق . فوافيني مع مريانا الى ساحة المدينة ، وسنجعل الدوق ينتقم للمظلوم من ظالمه شر انتقام ، خذي هذا الكتاب للاخ بطرس فهو الذي حمل اليّ خبر عودة الدوق ، وقولي له اني احتاج اليه ، ويجب ان يوافيني حالا الى بيت مريانا ، لأدبر أمرها ، واضمها اليك في الشكوى فتشتركان في طلب الانصاف ، انت بما اساء به انجلو اليك ، وهي بحقوق الزوج الشرعية ، التي يدوسها انجلو غير محتسب ، ومتى اجتمعت بالاخ بطرس هنالك فسأفهمه ما يلزم ان يعمل ، وهو سيقدمكما الى سمو الدوق في الوقت المناسب ، اما انا فعليّ نذر الآن ، واسأعود اليكما حين اللزوم ، ومتى عدت انحلت المشكلات وزالت الويلات ، وتبدلت الاحوال وتحققت الآمال ، فاصبري ان الله مع الصابرين ، وسيري الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون

الفصل الخامس

(١) — فعد انجلو

لماذا أمر انجلو باعدام كلوديو بعد ما وعد بالعفو عنه ؟

هذه هي المسألة التي نجيب عنها الآن ، فنقول : —

أصبح الصباح ، وانجلو في حال انفعال شديد ، لم يكن يعرفه من قبل فقد مر به نهار وليل روائيان ، كان فيهما هدفاً لعوامل منوعة ، فقد مر بك ما ذاق من لوعة الغرام ، وكيف دكت أمام هجمات الحب شوامخ عظمته وحصون تدينه . وقضى النصف الاول من الليل ساهراً ينتظر قدومها اليه حسب الوعد والاتفاق — وقد زعم أنه نال منها الارب ـ والحقيقة أن التي جاءته لم تكن إلا امرأته مريانا ، فانطلت عليه الحيلة لضعف النور ، وقصر المدة ، ولان الكلام همساً ، ولانه قد استولت عليه الشهوة الحيوانية . وعبيد الشهوة لا يدركون الحقائق ولا يفقهون ، ولما برحت مريانا قالت له الجملة التي تواطأ وايزابلا عليها وهي «الآن انتظر أن تطلق سراح أخي» فلم يشك أنها ايزابلا ، وهنالك أمر لم ينتبه اليه القاريء ، وهو أن مريانا ، ولا بد ، جادت عليه بالحب ، لانها تريده ، وقد جاءته مختارة لا مكرهة ، فهي السانحة التي تغتنمها ، وقد صحت أحلامها ، وفازت باجتماع اللورد انجلو الذي تهواه انه كان مغرماً بها لانه ظنها ايزابلا ، أما هي فمغرمة به لانها تعرفه وأرادت أن تربحه . فكان تصرفها معه في تلك الدقائق تصرفاً جذاباً ، وهي خطوة طبيعية في سياق هذه الحكاية ، وقد تركت مريانا في قلب انجلو أحسن تأثير ، حتى أنه جعل يحدث نفسه في الاقتران بها ، لانه قد استطابها

فلم يقنع بان تكون له مرة واحدة فقط .

هنا جلس انجلو يفكر في ما قد ينشأ عن عمله من وخيم العواقب. فانه يعتقد أنه قد اغتصب ايزابلا اغتصاباً . وأنها لولا رغبتها في انقاذ أخيها لما سلمت بما سلمت به. فتراءى له أنه اذا عفا عن كلوديو . فاطلق سراحه ،وعاد الى اخته ، وحدثته بما كان من انجلو ، فقد يعمد كلوديو الى الانتقام . فخاف انجلو ، ولا غرو في ذلك فالمسيء جبان محتسب . لذلك أمر باعدام كلوديو ليأمن شر الانتقام . الظالم متقلب ، صغير النفس ، سيء الظن ، يحمله خوفه على ارتكاب شر المغارم وافظع الجرائم ، كما رووا عن عبد الحميد الثاني، وامثاله من الملوك الظالمين الذين لم يرعوا إلاً ولا عهداً . وقد أحسن افلاطون بتصويره الحاكم المستبد بكل ما يمكن ايراده من سيء الأوصاف . واشهرها « أنه مستبيح ناكث العهد والميثاق » . ذلك ما فعله انجلو

(٢) فضيحة العاشقين — موقف فلسفي

هنا موقف اعتبار واتعاظ يجدر بنا درسه وتمحيصه . قال انجلو لايزابلا أنه يحبها ، ومهما سألت منه فانه يعطيها ، حتى نقض ما أبرم من حكم . فموقف انجلو أمام ايزابلا هو موقف هيرودس أمام سالومي ابنة هيروديا . ذاك لعبت في رأسه ابنة الحان . وهذا أسكره « الغرام » وسترى فساد ما يزعمون أعوذ بالله من شر ما يأفكون .

لو سألنا انجلو عشية اليوم السابق أتحب ايزابلا اكثر من كل امرأة؟ فما تظن أنه يجيب ؟ ألا يقول أنه يعبدها؟ وهذه ترجمة حاله : —

وصالك جنتي وجفاك ناري وحبك مذهبي وهواك ديني

فاحفظ ذلك في ذهنك . ثم لو سألنا انجلو أتحب ايزابلا محبة حقيقية ؟ لاكد لنا صراحة أنه إمام العاشقين الارفع

عنيّ خذوا ولي اسمعوا وبي اقتدوا ويحدثوا بصبابتي بين الورى

ولو انكرنا عليه دعوى حبه لحسبنا من اكفر الكافرين . ولو قلنا له : — يا انجلو انك غير محب لايزابلا . وليس ما في نفسك إلا هوى شهوة حيوانية ، خالية من مزايا الحب . وان ما حصل في نفسك مركب من تأثيرين أولهما حب الذات والاثرة وثانيهما جمال ايزابلا . والحقيقة أن قلبك خال من حب ايزابلا خلو حكمك من العدل . وانت اكبر عدو لها ، لانك إنما تبغي الاساءة اليها . لو قلنا له ذلك لانكر علنيا جحودنا ، ولنسبنا الى التعصب والغرض ، أو الى الجهل المطبق . وكنا في حسبانه أبعد عن مواطن الحقيقة من الثريا عن الثرى . هذا هو شأن عبيد الشهوة في كل زمان ، يدّعون الحب وهم فاسقون . فما قولكم دام فضلكم في رجل يهتك عرض العذراء وينكث بعهدها ، ثم يكسر قلبها باعدام اخيها . أمحب هو أم عدو ؟ لا شك في انكم تحسبونه عدواً لدوداً وهو كذلك فدعواه الحبية ساقطة لأن المحبة لا تصنع شراً للقريب

أما انجلو فقد صنع شرّين لا شراً واحداً . مع ذلك هو يدعي حبها . أفأنجلو وحده الكذوب أم يشاركه كثيرون من ارقاء الغزل والنسيب ؟ ألا ينحو نحو انجلو كثيرون من ابناء هذا الزمان وابناء كل زمان ؟ اولئك الذين تحملهم شهواتهم الدنيئة على خطب ود الغانيات ، ثم يقلبون لهن ظهر المجن ولولا ذلك لما كان لنا نصف العاهرات والفواحش . اشارة الى فونتين هيوغو (الوارد ذكرها في رواية البؤساء ، وقد غدر بها حبيبها سولومييه

فصيرها فاحشة) . قال فيهم «ول دورانت» أنهم يحفظون صورة واحدة من نص التحبب والتشبيب يقرأونها لكل حسناء ، فقط يغيرون اسم الحبيبة والنص واحد لجميعهن. أعني انهم يقولون لكل واحدة « انت المليكة الوحيدة على عرش القلب » . والله يعلم والتاريخ يعلم أنهم كاذبون . وأنهم لا يعرفون من الحب إلا اسمه . وإلا لما عمدوا الى الانتقام في مواقف الصد واليأس.

(٣) كفرى : رواية جسشر

ربما بلغك أن صاحب هذا القلم كافر. فاسمع نبأ ذلك الكفران. حضرت ذات ليلة ، رواية في أحد مسارح نيويورك ، تدعى «جسشر» وخلاصتها أن رجلا كانجلو كان يهوى فتاة حسناء كايزابلا . لكنها صارت لآخر لانه غني . وتركت الذي كان يهواها لانه فقير . فما كان من هذا إلا انه كاد لها وسعى في تنغيص عيشها ، وسجن زوجها بحيلة ، متهما اياه تهمة باطلة . ثم ذهب الى بيتها وشرع يتهكم عليها ويضمها مردداً الفاظ الحب والغرام تهكماً واستهتاراً . وكان يمثل بطل الرواية « جون بري مور » الشهير في أمريكا . وسألتني صبية كانت الى يساري قالت : — كيف ترى هذا التمثيل يا أبتي ؟

قلت لها اني حائر في أمر هؤلاء الناس .

قالت أفلا تستحسن ذلك ؟ :—

قلت :— أبداً بل هو في شرعي عار على الرجال .

قالت : — ولكن الممثل « جون بري مور »

قلت :— لست أفنّد تمثيله . ولا أنا أهل لذلك . لكنني افند مضمونات الرواية .

قالت :— فكيف ذلك ؟

قلت : ان بطل الرواية يدّعي حب هذه الغانية الحسناء

قالت : — نعم . فماذا لك في ذلك ؟

قلت : ـ أولا : اذا كان يحبها فلماذا لا يفرح لها وقد حصلت على من هو خير منه ؟

ثانياً : ـ لماذا يتعقبها ، يتلصص عليها وهي لزوج رجل آخر . أفما هو عيب عليه ؟

ثالثاً : ـ لماذا يستعمل قوته البدنية في جرّها والزراية بها تهكماً وتبلياً ؟ ألا ينافي ذلك دعوى الحب ؟

فبهتت الفتاة . وحملقت بي ، ثم قالت يا أبي إنهم يمثلون ما يجري في العالم

قلت : ـ وعلى ما يجري في العالم اعترض

قالت : ـ أفلم تعشق يا أبي ؟

قلت منكراً : ـ أنا ؟ لست اومن بالعشق ولا بالعاشقين .

قالت : أفلا تحب ؟

قلت :ـ من كل بد . واني أحبك

قالت : ـ واذا هجرتك وأخذت سواك ؟ فماذا تفعل ؟

قلت : ـ ليس إلا أفعال الرجال . أي اني أصون عرضك . وأتجنب كل تعرض لك ، أو مساس لعواطفك واحفظ لك الود والاخاء .

وفي ثاني الأيام كتبت مقالة بهذا المعنى ، ونشرتها في إحدى المجلات. وقلت ان أدعياء العشق إما أنهم عاجزون فيسترون عجزهم بادعاء الغرام ، شأن المتسولين الفاجرين . وإما أنهم مجانين مصابون في أدمغتهم ونفوسهم ،

فاعمالهم غير ثقة ولا حجة . وإما أنهم محتالون يرمون الى ارضاء شهوة بهيمية . وهم الد أعداء الفتاة التي يتغزلون بها ويتقربون اليها . وفي كل من هذه الأحوال هم أنذال . والرجل الذي يستحق اسم رجل هو الذي يسعى ويرضى بالخير لمن يحبها وهي في حوزة غيره هذا هو الكفر الذي قلاني بسببه من قلاني

اني صادق ، ومع ذلك فهم يعاملونني بالشنآن . وأنا أعلم أنهم كاذبون واكثر من كاذبين ، ولكني أعاملهم معاملة الشفقة والاغضاء

فاستر عوراء الكريم اذّخاره واعرض عن شتم اللئيم تكرّماً

ولو جاز لي لأوردت اكثر من شاهد واحد على اني طبقت نظريتي بالفعل . وكنت أميناً لمن لم يكونوا أمناء لانفسهم ، ولا قدروا الرجولة في محب ، ولكن يكفي ما قلته اعراباً عن مذهبي . فلو كان انجلو محباً حقيقياً لما أساء الى ايزابلا . ولو أن سلومييه محباً حقيقياً لفونتين لما أذاقها ما أذاقها .

(٤) مناقشة الحساب

دعنا نخاطب انجلو . وبه نخاطب الوفاً من ادعياء الحب ميناً وبهتاناً :— انجلو ، يا انجلو . انك تحب ايزابلا ، بل تعبدها . فمهلا ياهذا مهلا . ما ذنبها وانت عاشق كمالها وفضيلتها حتى كسرت قلبها وقرّحت جفنها ؟ فلقد سايرتك ايزابلا (في معتقدك) وصارت الى ما أردت منها . وقد وعدتها فلماذا أخلفت وأنت المحب الهيّام ؟ أفيزعم القاريء اني أهيم في بحار الخيال ؟ لا بأس . فقد فرض على المنصف أن يتحمل المعتدي ، في سياق الدعوى . فاليك اصدق الكتب واحرصها — التوراة — التي يؤمن بها اكثر أهل الدنيا . نخذ توراتك

واقرأ ما جاء في سفر صموئيل الثاني الاصحاح الثالث عشر . وقف عند كل نقطة ، ووافقني بالنقد والحكم الصحيح

« كان لابشالوم بن داود اخت حسناء تدعى ثامار . فاحبها أمنون بن داود » . الظاهر انها اخت ابشالوم من امه . قبلما صارت لداود . وذلك لا يهمنا هنا . فلتكن ما كانت

فهام امنون في حبها وأصابه من جراء ذلك مرض الزمه الفراش . بل انه تمارض عملا بمشورة عشير سوء له ، احتيالا على ثامار التي كانت تصون عفافها . ولما دخلت الى مخدعه لتخدمه كأخت ، عملا برغبته وباذن الملك . قام امنون الكاذب الادعاء . واغتصبها . هكذا تقول التوراة . وماذا فعل بعد ذلك ؟ . قلاها أي ابغضها . وأمر خادمه أن يجرها خارجاً . أفتدري ماذا قالت له ثامار ؟ . فاسمع واعتبر ، قالت : — « ان هذا الذي تصنع الآن شرّ مما فعلت » يعني أن انقلابه عدواً هو جرم افظع من هتك عرضها . هذه حكاية التوراة الصادقة . وهي حكاية كل يوم . افليس ذلك ما نراه الآن فى انجلو وايزابلا ؟ أما انا فاحسبه توحشاً ونذالة . وهو معلول ما نقص التهذيب في الرجال ، وعلى الفتاة أن تحاذر من يتغزل ويتشبب محاذرتها الجرذ المبلول

ولكن ساء فأل انجلو ، كما يسوء فأل امثاله . واليك مجالي الحادثة.

أولا : — انه لم ينل من ايزابلا . بل التي نالت منه هي مريانا . فهو كالهر الذي يلحس المبرد ظاناً انه رابح ومصدر الدم لسانه وهو لا يدري . « يخادعون الله وهو خادعهم » .

ثانياً : — قد توهم انجلو انه اعدم كلوديو . وان رأسه أمامه . وقد

خدع أي خداع . فلم يكن أمامه الا رأس راجوزين . وكما خدع فقد خدع.

ثالثاً :— توهم ان ايزابلا قد عيبت فلا تجرؤ على التشكي عليه . وقد ساء فألا في ذلك . لانها مازالت بكراً نقية الصفحة وستشكوه

رابعاً :— اعتدّ بمنزلته ، وبأنه فوق الشبهات ، وسترى انه متستر بخرق بالية . أو برداء شفاف . فالهوة أمامه عميقة . ولم يحل دون هلاكه الا كرم أخلاق التي اهانها وقلاها . فكافأته خيراً عن شر صنعه لها

(٥) انجلو فى بيته

نظرة الى انجلو في ذلك الصباح . قد مر بك انه كان الليلة البارحة ونهارها في كفاح متواصل واختبارات جديدة . بين غرام مستجد بعذراء نقية ، وتأنيب شديد منها ومن ضميره ، فاستسلام للهوى ، وسهر الليل في الاستباحة . ونكث العهد والميثاق . والآن اشرقت الشمس وقلبه مثقل بما اجترح . وقد خيل اليه انه بحصوله على رأس كلوديو يتوطد اطمئنانه . فما هذا الجزع الذي يحس به ؟ . لقد أصابه ما أصاب مكبث . الذي قطع رأساً كان يزعجه فنبتت رؤوس تزيد في ازعاجه وذعره . وقد استفاق ضميره بعد ما طفح كيل مظالمه . وهو يصرخ الآن من اعماق مكامنه صيحات ترتعد لها فرائص الجبابرة قائلا:— انجلو يا انجلو — ويلك يا انجلو مما فعلت انت سفاح سفاك ، تدّعي البر وانت اثيم نازغ . ومدع كذوب . اغتلت كلوديو وانت افظع منه خطأ ، وختلت ايزابلا ولم تفعل بك سوءاً . واسأت الى الدوق الذي ائتمنك ، والى العدالة التي ترعاها ، والى الامة التي تخدمها ، والى الله ربك وديانك . فويل لك ثم ويل ، ثم ويلات . كل

فاجر وكل فاحش في فينا اشرف منك يا انجلو . فانت اضعف حلقة في سلك الامة ، واقبح وصمة في جسم الدولة . انت قبيح ، انت عار ، انت مجرم . .

هذا كان صوت الضمير في صدر انجلو . فكانت ترتعد له فرائصه وقد زادت اتعاب اسهاره انفعاله . فكان ضعيف الهمة صغير النفس أمام تأنيب الضمير . وقد فاجأه الآن خبر زعزع اطمئنانه . وهو « ان الدوق قادم » خلاف ما كان يتوقع . والذي زاد في ازعاجه هو ان الدوق سينصب ديوانه في ساحة المدينة . وسيدعو كل من له شكاية على انجلو للظهور أمامه . هنا نرى انجلو يهتز أمام تيارات الهواجس والمخاوف . فكانت الامواج تتلاطم في داخله ، فتهزه هزّ سفينة تتلاعب بها الانواء . وقد عجز عن تهدئة تلك الزعازع . فكان يتكلم بصوت متلعثم ، وعبارات متقطعة قائلا : ـ

الدوق . . . الدوق ـ مالي أراه يتقلب تقلب الحرباء ؟ فينقض كتاب اليوم قرار البارحة . افمجنون الدوق أم ماذا يا ترى ؟ . ولماذا يستلم مني الحكم في الساحة ؟ ولماذا يفتح الباب للتشكي علي ؟ انها اسرار اجهلها ولكنها تزعجني وتهزني هزاً . فماذا ؟. افتقدم ايزابلا على ان تشكوني ؟ فما هو دفاعي لو فعلت ؟ لا لا . ذلك لن يكون . فكيف تفضح نفسها بلسانها ؟ ولكن اذا كان ذلك كذلك ، ولا خصم لي غيرها ، فما أنا مذعور ؟ ولماذا يختبط قلبي في صدري اختباط الطير الذبيح ؟

تلك الزنبقة الجميلة ، التي عبقت انفاس طيبها في جنتي ، وطوقتني بذراعيها فانستني ديانتي وصلاتي ـ ذلك الجسم البديع كأنه سبيكة من البرلنت . آه ليتها تكون لي زوجا ، أو حظية ، امتع النفس بها كلما تقت الى السلوان . اتمنى ذلك ولو ان علي الف دعوى ودعوى أو لو اذهب الى

« جهنم حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ » . ولماذا لا ترضى ؟ . فقد نفد سهم القضاء باخيها ، واصبحت عديمة النصير وبالرغم من جمالها الفتان ورشاقة قدها ، وحلاوة شمائلها ، وذلاقة لسانها ، بالرغم من كل ذلك ، قد قصقصتها . فاصبحت يتيمة مهملة. افلا تهجر «سنت كلير» فتكون لي سرية أو خادمة فراش ؟ وحينذاك لا يكون استمتاعي بها منكراً لانها « مما ملكت أيمانكم » فيكون جمالها الباهر ملكاً شرعياً لي انعم بها كما انعم بحديقتي وانشق عبير ازهارها وورودها . فتخاطبني حينذاك بصوت مسموع . وأراها في ضوء النهار . وتخضع لي خضوع المملوك لمالكه . فلم يزعجني ، والحق أولى بان يقال ، الاشموخها وعنجهيتها . فليتني أذللها واخفض رأسها فلا تؤلمني رفعتها . أي نعم فتحبني حب الذليلة ويكون حبها لي اطيب من الخمر ، والين من الزيت ، وانعم من الدمقس . فلقد أحسنت اذاً في قتلي أخاها ، ليت الدوق يتأخر فاحصل عليها مرة أخرى ، أو امتلكها ملكاً شرعياً . فكنت إذ ذاك استثمر منصبي . ذلك خير من اصلاح الف أمة ، وتطهير الف عاصمة كفينا ! . ولكن الدوق عجل فأساء الي ، وأفسد علي خططي لا . لا . لا تستسلم للمخاوف يا انجلو فانت عظيم ! ! والعظيم لا يخاف فتوكل واطمئن

(٦) الاخ بطرس — من هو ؟

استلم الاخ بطرس خطاب الاب لودويك من يد الحزينة ، وضرب لها ولرفيقتها مريانا موعداً . ووعدهما بان يقدمهما لسمو الدوق شاكيتين ، حسب رغبة الاب لودويك ووصيته المعتبرة . فالظاهر ان الاخ بطرس على صلة بكلا الاثنين الاب لودويك وسمو الدوق . يدلك على قرباه من الدوق خطابه

للمرأتين الآ تخافا . ولا تخشيا اذا خاطبهما الدوق بجفاء . بل انه سيخاطبهما بجفاء، فلا ترهبا . لان ذلك ليس الا علاجاً مراً لعاقبة حلوة . فكيف يعرف هذا الكاهن افكار الدوق ؟ . هل كتب له ذلك الاب لودويك في كتابه ، أو انه استقاه من مصدر آخر ؟ وما هي نسبته الى الدوق ؟ فاننا نراه يعد المرأتين مواعيد لا يجرؤ غير الدوق على اعطائها فما هو منه ؟ . أأخوه هو ؟ أم مستشاره ؟ أم معلم اعترافه ؟ أم ماذا ؟ عند ذلك شرعتا تتحدثان على النحو الآتي :

ايزابلا : ـ قد بلغ طغيان انجلو آخر حدوده . فاليوم يوم الانتقام

مريانا : ـ ليتك تجدين لاحزانك منصرفاً . فان قلبي ليشفق على زوجي وان يكن لا يدري حقيقة حاله معي . ولولا انك مظلومة ، ومحسنة الي لكنت ضدك . أما الآن فافعلي ماتشائين فلست لالومك

ايزابلا : اذا تكلمت بغير صراحة تلوثت ، فاقول الحقيقة . أما التشكي ومقاضاة انجلو الحق فمن خصائصك لانك انت التي دفعت الثمن واذا انت سكت عنه حسبت زانية وساقطة الى الابد . فعليك بافشاء الامر بحضرة الدوق ، وطلب حقوق الزوجية .

مريانا : ـ واني لفاعلة كما املى عليّ الاب بطرس . أما انت فدونك ما تريدين ، وعلى الله الاتكال ، فان نهاية طريقنا مكشوفة له تعالى . وقلبي يؤكد لي ، ولا ادري كيف ، أننا سنجد من مأزقنا هذا مخرجاً ، وأن حسن الختام أمر مقرر . فانا متفائلة ، مع ان كل شيء يدعو الى التشاؤم . ولا أدري اذا كانت كلمات الاب بطرس هي التي زرعت في تربة قلبي بذرة الرجاء ، فنبتت ونمت وصارت شجرة ، حتى اني أرى طيور الآمال تتآوى في

اغصانها. فقد اكد لي الاب بطرس ان الدوق المبارك يعطف على كلتينا. واذ هي في الكلام جاء الاب بطرس يستحثهما قائلا ان الدوق قد وصل . وقد علا صوت الابواق في ساحات ڤينا ، وقد نصبت العروش ، والدوق منتظر كل ذي دعوى وشكاية ، فهذا هو وقتكما فتعاليا واصرخا عالياً ، ولا تخشيا زاجراً ولا نكيرا . ومهما يعبس الدوق ، ويكلمكما بجفاء فلا تضطربا . فانه سيقطب حاجبيه ويزجركما ، فكونا مطمئنتين فان قلبه حنون

وسار الاب بطرس ، وسارتا معه ، كأنهما مريم ومرثا مع أخيهما لعازر. وللحزينات الملهوفات اكبر تعزية في من يؤاسيهن ويسعى في جبر خاطرهن .

(٧) الشكوى

رفعت ايزابلا عينيها ، ومريانا تشاركها في ذلك فراعتهما ابهة الدوق. فقد كان محاطاً بالوزراء والاعيان واركان الدولة بملابسهم الرسمية. والجنود مصطفة تؤدي التحية ، وجوقة الموسيقى تعزف اللحن الرسمي ، والجموع الغفيرة تدعو بسلامته ونصره . فكان المشهد مثيراً لواعج الاشجان ، لان كل ما يثير المسرة في القلوب الخالية يثير لوعة الحزين. فلماذا كل فينا تشهد هذا المشهد الا كلوديو التاعس ؟ والذي زادها شجناً على شجن وحزناً على حزن ، ان اللورد انجلو ، عدوها وقاتل أخيها ، وهو الى يمين الدوق ، مكللا بالمجد والكرامة. هذا المجرم الغادر يتمتع بمظاهر التجلة والاحترام . والذين ظلمهم — من افاضل واكارم — يقفون موقف الذل والهوان كانهم هم الجارمون وهو المزكّى

وحينذاك دنا منها الاب بطرس، وهمس في أذنها ان هذا هو وقتكما فاصرخي وقولي : فصاحت ايزابلا بصوت رنان يجرح القلوب وقالت ، بلفظ يعرب عن قلب كسير : ـ

عدالة أيها الدوق عدالة . سمعا لنداء الاذلاء المظلومين، ولا تعطفن على المجرمين المعتدين. انني فتاة حقيرة ياسيدي الدوق ، ولكن حقي غير حقير. فلا تدنسن عينيك النقيتين بتحويلهما الى أي أمر قبلما تنظر في دعواي وتنصفني ، وتسبل عليّ استار العدالة — العدالة — العدالة —

فنظر الدوق اليها نظرة ملؤها العطف والحنان ، وامرها أن تبسط شكواها ، وتذكر من وماذا . وقال لها اوجزي في الكلام، وهوذا ابن عمنا اللورد الندب الحكيم ، ناصر العدالة ورافع لواء الانصاف ، الى يميننا فهو شريكنا ومعيني في انصافك ، فقولي ولا ترهبي

فصاحت ايزابلا صيحة طبقت فينا ، وبلغت اصداؤها سابعة الطباق :— أيها الدوق المفدى ، انك تقذف بي الى الموت الذي اشكوه لأستمد منه حياة ، والى هوة الهلاك لاقتنص منها خلاصاً ونجاة . فمن هو ظالمي حتى تجعل انجلو حكمي ؟ اليس هو خصمي وظالمي ؟ فاليك المشتكى وعلى قدميك اترامى فانعم عليّ بالتفاتك الخاص ، ونظرك الثاقب في دعواي ومتى فهمت قضيتي انصفتني . ولذا ابغي ان تعير شكواي الاهتمام اللازم . فاما ان تعاقبني كآثمة ، أو تجود علي بنعمة الانصاف الذي هو جمال الاحكام . فسمعاً ياولي أمري سمعاً .

قالت ايزابلا هذا الكلام وعيناها على انجلو كأنها تهم ان تبتلعه ابتلاعاً وكان لصيحاتها في نفسه رجة لا يعرفها الا الظالمون الجبناء وقد دنا وقت

افتضاحهم. افتضاحاً لا تستره رفعة ، ولا تخفيه وظيفة، ولا تنجع فيه حيلة .

فهو من مواقف الانسان الروائية . ومن اختبارات انجلو الغريبة . فقد اجتمع بايزابلا وجرى له معها ما جرى ، مما مرّ بك بيانه . وقد حدث له في خلوته من الجهود بين الهوى والتقى ما ذكرناه . وكان من أمر مريانا وزيارتها له ليلا، وهو لا يدري أنها هي ، ما كان . وقد احيا الليل يفكر في ما يكون من كلوديو ، وبعث برسوله الى السجن بأمر مشدّد في تعجيل اعدامه . وهذا تمام اليوم وبه يرى ايزابلا أمامه في حضرة الدوق — لا لتتوسل اليه ـ بل لتشكوه مرّ الشكوى ولتسمعه من قوارص القول ما لم يسمعه في حياته .فكان لنبرات صوتها رجة في صدره لا يدريها سواه .فان صرخات المظلومين تزعزع نفوس الظالمين . وهذا هو السبب في قسوتهم عليهم بعد أن أوقعوا بهم . فانهم يريدون أن يتخلصوا من صيحاتهم ، خوفاً من عواقبها ، ولثقل وقعها في نفوسهم . فانجلو يمثل كل ظالم في هذا الموقف . وايزابلا تمثل كل مظلوم . وصرخاتها ضد انجلو تمثل صرخات المظلومين ضد ظالميهم . ان الظالمين يؤلمهم البرهان ، ويزعجهم النور والبيان ، فيرمون الى قتل الحقيقة وارهابها ، كي لا يبقى في الارض من يصرخ ضدهم ، ويفضح أمرهم. فأمر انجلو بقتل كلوديو لا لانه مجرم بل لخوفه من مناقشته الحساب وكأني به يود أن يقتل هذه التي تصيح ليرتاح من صيحاتها ، ومما قد تجره صيحاتها من سيء النتائج . هذا هو حال الظالم ، يحب لا لينصف ويحن ، بل ليظلم وليسيء . فهو يمثل طبقة في الأرض هي سبب كل تشويش وكل بلاء أناس يحلون في المراتب المحترمة وهم عديمو الجدارة ، وقد اضاعوا الحق والشرف والسلام وهم جناية على الانسانية وعلى انفسهم.

فامتقع انجلو لما رأى ايزابلا وسمع كلماتها ، وامتعض أي امتعاض . ورجفت شفتاه ، وارتعد ارتعاد فيلكس الوالي أمام بولس الأسير . وشعر بدنو موقف الحساب المخيف ، فشرع يدافع عن نفسه دفاع الغريق . فقال في مسمع الدوق . « يامولاي أخشى أن يكون بهذه الفتاة مس من الجنون بسبب حزنها ويأسها . فقد كان لها عندي دعوى ، لم تأذن العدالة باجابتها الى ما تروم . أي اني لم اقدر أن اعفو عن اخيها بل انفذت فيه حكم الاعدام عملا بنص القانون ، حسب رغبة سموكم وحكم العدالة والقانون » .

فصاحت به ايزابلا صيحة انتفض لها انجلو انتفاض عصفور بلله القطر . ورددت اصداءها جنبات فينا وكل اوربا قالت : —

أية عدالة ، وأي قانون ، وأي ناموس ، ياظالم ياغاشم ياسفاح ؟! أما انت الجاني على العدالة وعلى أربابها ؟! . انصفني ياسمو الدوق انصفني أو فأمر بقتلي وارحني من أليم الحياة .

فحول انجلو وجهه الى الدوق الذي كان جامداً كالصنم ، وقال له « انها تتكلم بحرارة كلاماً مستهجناً ومنكراً . »

فصاحت ايزابلا : — مستهجناً ! نعم نعم انه مستهجن ولكنه حق صراح . أفليس مستهجناً أن انجلو فاجر ماكر ؟ أو ليس مستهجناً أن يكون نائب الدوق اباحياً سفاحا ؟ أو ليس مستهجنا ان حاكم الامة لص ؟ يهاجم العذارى ليسلبهن أثمن ما يحرصن عليه ، ثم يظهر بنور النهار براً وقورا ، ويجلس الى يمين الدوق مظهراً للحفاوة والاكرام ، وربي ان ذلك لمستهجن

قال الدوق (بتأثر عميق) : — بل هو الف مستهجن

قالت ايزابلا :— لكن لا شيء اكثر منه انطباقا على الحقيقة . «فاننا انما نتكلم بما نعلم ونشهد بما رأينا »

قال انجلو مسكينة مسكينة . فان جنونها قد تغلب عليها

فصاحت ايزابلا :— ياصاحب السمو صدقني . فاني اليك اتوسل وبك علقت كل آمالي. وليس لي من ناصر ولا معين سواك. فان ما يلوح لك غير مألوف هو غير مستحيل عقلا . فلست بمجنونة ، إلا غيرة على العدالة والانصاف والشرف التي داسها انجلو الطاغية . فاياك وايا انجلو فانه حجر متدهور من عل ، فتجنبه احزم سياسة واكمل عدالة . دعنا نعمد الى الرشاد ياسمو الدوق . فهل انجلو الا بشر كغيره من الناس؟ فلماذا نظن فيه النزاهة وكل الناس خطأة . انه يسوءني كما يسوءكم ان يكون صاحب هذه الرفعة شريراً ، يخلع التأدب والحياء ، ويقضي بالبطل والجور على من اخلصوا لربهم وللانسانية ولأنفسهم . فانجلو هذا ، الجالس الى يمينك ، مزدانا بالملابس الرسمية ليس إلا ذلك الخؤون النازغ . صدقني يامولاي صدقني واذا لم يكن انجلو كما أصفه فليس هو شيئا . ولكن فيه كل ما قلته ، وفيه اكثر من ذلك كثيراً ، فان الأدب يمنعني من الاتيان على كل ما فيه ، لان ليس كل ما يعلم يقال ، ولو ان في قواميس الدنيا من نعوت الذم والتقريع اكثر مما قلت لاضفتها الى ما وصفته به تبيانا لحقيقته ، ولكن معجمات اللغة لتقصر عن توفية هذا الرجل حقه من الذم والتشهير . فحول الدوق وجهه نحو انجلو ، وقال بترصّن مع اخفاء عين النقد عن انجلو :— وذمتي ان في جنون هذه الفتاة مالا نجده في عقول اكابر الرجال ، فيا له من جنون غريب ،

فاذا كانت مجنونة كما قلتم عظمتكم ، وكما لا نرتاب في ذلك ، فجنونها من أغرب ما عرفنا

فاعادت إيزابلا صراخها : — أيها المولى المفدّى لا يريبنك أمري ولا تقصي عن قلبك صرخات الجريح

يقول المؤلف : — كنت أود أن اكشف عن باطن الدوق ، وابين ما لتلك الصرخات وتلك النظرات الصادرة من ايزابلا في قلبه ، ولكن أدب التأليف لا يأذن لي بذلك ، لانه عبارة عن جني الثمر قبل نضجه ، فارجو القاريء المعذرة ، على انه لا يسعني إلا القول انه كان لعبارات ايزابلا تأثير في قلب الدوق لم تكن تتصوره . فان ثقتها التامة بالدوق ، ونظراتها البريئة على ما في فؤادها من حزن ، والجد الذي به تتكلم ، وبادي جمالها ، وما في نفس الدوق من امرها مما تجهله الى الآن — كل هذه الأمور — كادت تذيب قلبه . لكنه لأمر ما تجلّد واخفى ما في نفسه من الانفعال ، واصغى الى قولها : —

« دع نظرك الثاقب أيها الدوق ، يخترق الحجب والستور ، ويبرز الحقيقة الى النور . فان البطل المستتر قد يحسب حقاً ، وذلك الى حين . أما الحق فوإن اخفته أيدي الآثمين لهو الأس المتين ، الذي عليه تشاد العظمة والمجد في كل أرض وفي كل سماء . فالحق يعلو ولا يعلى عليه . اني صاحبة هذه الدعوى ، لعلى حق يامولاي ، وحقي مهضوم . وانجلو ظالم . هذا هو الباعث على ما تراه في من بوادر الجنون.

الدوق في أذن انجلو : — كثيرون من العقلاء يعوزهم مثل هذه الحكمة

ثم التفت الى ايزابلا وقال بنزق وعبوس : — انا سامعون فقولي ، ما الذي دهاك . وان شاء الله انا لمنصفون

ايزابلا بهدوء وسكينة : —

مولاي انا شقيقة كلوديو بن الشريف ماريوس من اعيان فينا . وقد كان والدي المأسوف عليه كثيراً أحد رجال والدكم ساكن الجنان رحمة الله عليه ، مات والدي عن ذكر وانثى . فالذكر كلوديو والانثى هذه التاعس . أتيت من دير سنت كلير ، مدفوعة بالشفقة والحنان ، وبعامل المروءة والانسانية لمقابلة اللورد انجلو ، لأتوسل لأجل أخي ، اجابة لالتماسه المرسل اليّ بواسطة رسوله لوشيو

وكان لوشيو واقفاً وراءها ، فانطلق في الكلام دون أن يسأل قال : — نعم يامولاي ، أنا كنت ، وأنا وَ ... فقاطعه الدوق وزجره قائلا اصمت يافلُ ولا تنبس ببنت شفة ، ومتى سألتك تحتم عليك الجواب . أما الآن فتنحّ عن اعيننا

قال ذلك مقطباً كأنه له على لوشيو ماله .

فانسل لوشيو خجلا ، وصمت صمت الموت . فاستأنفت ايزابلا شكواها قالت : —

ان نداء لحوحاً ياسمو الدوق ، من شقيق مهدد بالاعدام ، حوّلني وقتياً ، عن إيفاء نذري الذي نذرته ، أن اكون من القانتين (الرهبان) فجئت انجلو هذا ، الذي لاتراه عيناي الا ونيران الغضب تتقد طي أضالعي ، بالرغم من حسن نيتي ، وما يلزمني في حضرة سموكم من التأدب . مثلت امام انجلو . وجثوت ورجوت . وتوسلت . وصاحب الحاجة ارعن ياسيدي الدوق .

فكنت تلك الرعناء لا ترى إلا قضاء حاجتها . والحت على هذا النائب الدنيء فصاح بها الدوق بغضب قائلا : انك بجنون تتكلمين . فاجابت عفوك يامولاي ، فان الثوب يليق بناسجه . واني احسن التفصيل . انه دنيء نعم والف دنيء . لانه راود العذراء وطلب منها ما لا يطلبه شريف من عذراء حابس. وقد وعدني انه ليعفو عن اخي اذا ابحت له نفسي. هنا بيت القصيد يامولاي . انجلو حكم على اخي كلوديو بالاعدام لانه تزوج سفاحاً . مع انه امين لزوجه وهي راضية عنه وآلها . ولكن انجلو القاضي الصارم لم يتزوج ولم يسع الى زواج ، بل سعى الى شر لا مبرر له، الى افساد نفس فتاة قرعت ابوابه مستنصفة أو مسترحمة. ولم يحترم نفسه ، ولا رعى حرمة القضاء، وهيبة سمو الدوق الدي ولاّه ، ولا قدر منصبه وموقفي أمامه . ولا فطن الى الحكم الذي أبرمه على السفاحين ، مع ذلك أراد أن يكون سفاحاً ويحكم على السفاحين . أي ان لصاً كبيراً يريد أن يكون قاضياً ويحكم حكما صارما على لصوص صغار .

ولأمر ما اجبته الى ما طلب . لكنه بالرغم من الوعد نفذ الحكم بأخي فكان ذنبه مضاعفاً لانه دان على فعل وقد فعل هو شراً منه . هذه هي دعواي ايها الدوق العزيز صانك الله .

الدوق :— وذلك من الغرابة بمكان

ايزابلا :— لكنه الحق الصراح الذي لا ريبة فيه ولا التباس .

الدوق :— وحق السموات انك تاعس لا تدرين ماذا تقولين . وإلا فقد اثمت ضد شرف ابن عمنا اللورد انجلو . والذي نراه في القضية هو هذا :—

اولا : — ان سيرة انجلو نقية خالية من كل وصمة .

ثانيا : — ان روايتك غير معقولة . فلا يأذن لنا العقل ان نصدق ، أو نتصور ، دناءة كهذه من شهم كهذا ، فكيف يقيس نفسه باخيك المجرم فيفعل شراً منه وقد دان فعله ؟

فقولي الصدق ايتها الفتاة ، يد من معك في هذه الدعوى ؟ من املى عليك هذه الترهات ، وبعث بك الينا لتعكري صفو هذا اليوم السعيد ؟

ايزابلا :— افهذا كل ما عندك ؟ ايها القدوس في اوج العلى : الهم الصبر لمظلوم سحيق . وانتقم للناس من شر ظلوم . واسكب الشر على فاعله . واحجبي شمس السماء وجهك عن نازغ قد عاث في الارض فسادا . واغفر اللهم لمن لم يصدقني عن حسن نية

الدوق :— ويلزم سجن هذه الفتاة رهينة التحقيقات وسنرى ما يلزم في شأنها . فاننا لا نأذن ان يرمى ابن عمنا اللورد انجلو بالمطاعن على مسمع منا ومرأى . وهو أقرب الناس الينا ، واكرمهم لدينا . ان في الامر أصابع دهاة محنكين لا بد من الكشف عنها . فمن معك يافتاة ؟

انزابلا : — الذي يده معي يا سمو الدوق رجل وليس كالرجال . آه لو تعرفه . أباً توشح بالفضائل والتقى . كاهناً تحلى بالرصانة والادب . وقد ملأ قلبه وحياته الحنان وحب العدالة والانصاف هو الاب لودويك يا اميري

الدوق :— ومن هو لودويك هذا ؟ هل فيكم من يعرفه ؟ والا كان شخصاً وهمياً

لوشيو :— أجل أيها الدوق المعظم . اني أعرفه ، وقد جرى لي حديث

معه ، بسبب مطاعنه الجارحة في سموكم وكان آخر كلام بيننا اني قلت له انك ستعطي جواباً عما تقوله الآن في سيدي الدوق . هو رجل ربعة القوام ، مغرم بالخصام ، مكروه جداً سفيه مفترٍ تمام . وقد اوسعكم شتما وذماً . وانا قاومته جهراً

فنظر الدوق الى لوشيو نظرة فاحصة وقال:— أوصحيح ماتقول ؟

فقال لوشيو: — نعم وحرمة مولاي. وقد رأيته البارحة صحبة هذه الآنسة . وهو رجل خبيث نبيث

حينذاك تقدم الاب بطرس بتأدب وقال : —

عفواً ياسمو الدوق . لقد كنت الى جانب سموكم . وسمعت ما ساءكم من الكلام ان هذه الفتاة شكت ابن عمكم اللورد انجلو، وأنا أعلم انه بريء من عرضها براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، مع كونه ذئب مفترس . الا أنه هذه المرة (لما اتهمه اخوة يوسف بدمه) كان بريئاً

الدوق :— جيد جداً ولسنا نرى في الامر الا هذا الرأي

افتعرف الاب لودويك ؟ وهل ما قاله فيه لوشيو صحيح ؟

الاب بطرس : ـ نعم ياسمو الدوق ، اني أعرفه كما أعرف سموكم . وليس الرجل خبيثاً ، بل هو رجل فاضل وقور يحترمكم ويقدركم ويرعى ذمامكم ، كما يحترم ويقدر ويرعى ذمام نفسه . ولا يمكن أن يشتمكم اكثر مما يشتم نفسه ، وفي علمي ان الاب لودويك لم يرتكب وزرا . فقول لوشيو فيه هو ضد الواقع تماماً . فصاح لوشيو بأعلى صوته: ـ بل انه ارذل انسان

الاب بطرس : ـ سيأتي وقت به تعطي حساباً عن هذا الكلام فسيظهر الاب لودويك سريعاً فانه مصاب الآن بحمى خفيفة، وهو اعلمني ان أقدم هاتين الفتاتين لسمو الدوق وحسب رغبته فعلت . فانا اتكلم بلسانه، وأقول مايعرفه هو انه حق ، وكما أقسم لي فاني أقسم على صدقه ، واني لواثق بامانته وصدقه . ومتى ظهر فسيوضح كل برهان ويجلو كل وهم والتباس ، ويثبت كل قضية أولا مما يتعلق بهذه الفتاة ، وثانياً مما يتعلق بكرامة الدوق أما ايرابلا فلا ينقض كلامها الا صراحتها

الفصل السادس

(٣) نغمة جديدة في الطنبور

وفيما هم في هذا الحجاج ، وعلى وشك ان يسوقوا ايزابلا الى السجن اذا بامرأة مقنعة تقدمت في الوسط ،وقالت بصوت صادر من قلب جريح :

: — انا هي الشاهدة ياسمو الدوق !

فسألها الدوق : ـ من انت يا هذه ، وما هي شهادتك ؟

أجابته : ـ شهادتي في دعوى اتهم بها زوجي

الدوق : ـ ازيحي نقابك لنتبينك

مريانا : ـ لا ازيح النقاب حتى يأمرني زوجي

الدوق : ـ امزوجة انت ؟

مريانا : ـ كلا

الدوق : ـ أأرملة ؟

مريانا : كلا

الدوق : ـ امطلقة اذاً ؟

مريانا : ـ كلا

الدوق : ـ أفخطية انت ؟

مريانا : ـ كلا

الدوق : ـ فماذا أنت ، وانت لامزوجة ولا ارملةولا مطلقة ولا خطية ومع ذلك تقولين «زوجي» كأنك ذات زوج ؟

لوشيو : ـ انها معلقة ياسيدي ، لا مزوجة ولا مطلقة

مريانا : ـ اعترف لك يامولاي اني لم اتزوج قط. ولست سرية ولا مطلقة ولكني واصلت زوجي وهو لا يدري، بي بل كان يظنني غيري

الدوق : ـ فكان اذاً سكران ليلة اجتماعكما . افهذه هي الشاهد ضد اللورد ؟ فأين الشهادة ؟

قال الدوق ذلك بلهجة التهكم

فاجابته مريانا : ـ ان التي شكت انجلو فقد شكت زوجي . وقالت انه ارتكب الفحشاء ، ونسبت له ما نسبت وهو بين ذراعي ، انا زوجه ، يتمتع بكل ما في قلبي من حب واخلاص

انجلو : ـ فشكواها اذاً فرية عليّ

مريانا : ـ ذلك ما أريده لكنك لا تعرفه . بل انت تظن انها تقول الحق عليك

الدوق : ـ اتقولين ان انجلو زوجك ؟

مريانا : ـ هو الحق يامولاي. ولكنه لم يكن يدري. بل ظن انه يواصل غيري . على حين كنت أنا ذلك الغير . أما هو فكان يعتقد اني ايزابلا . هذه هي حقيقة الواقع يامولاي . فصاح انجلو صيحة من سرّي عنه بعد حرج الموقف ، وقد ظهر ان الحيرة ملكت عليه مداركه « ازيحي نقابك لنرى من أنت »

مريانا : — الآن اسفر لان زوجي امرني . قالت ذلك واماطت عن وجهها النقاب فبرز من ورائه وجه كأنه البدر وقد اشرق .

وقالت تخاطب انجلو برفق وحنان . هذا هو الوجه الذي كنت تقسم انه جدير بأن يرى . هذا هو الثغر الذي كنت تقبّله ، وانت تقسم انه احلى

من العسل . هذان هما الذراعان اللذان جادا عليك بالحب — في ظلام الليل الدامس — وانت تذوب بينها غراماً . وقد طوقاك وانت تظن انهما ذراعا ايزابلا . هذا هو الجسم الذي حلّ محل ايزابلا في حديقة بيتك . وانا التي قالت لك حين البراح « الآن اتوقع منك اطلاق اخي » . ارأيت من هي هذه الملثمة ياعزيزي انجلو ؟

فشملت الحيرة كل من حضر . وسكت الجميع كأنّ على رؤوسهم الطير . ثم التفت الدوق الى انجلو وقال له بصوت هادىء يشمله الوقار : ـ اتعرف هذه السيدة ! فأجابه انجلو : ـ كنت قد عرفتها قبل خمس سنين ، وكان بيننا يومذاك كلام في أمر الزواج . ولم يتم الأمر لعدم توافر الشروط . ولاسيما لان سمعتها غير حسنة كما ترى سموكم في افترائها الآن عليّ . ومنذ ذاك الحين لم انظرها .

مريانا : ـ أيها الدوق الخطير ، صانك المولى القدير ، كما يسطع النور من السماء ويهطل الغمام قطرا . وكما في الفضيلة حق وفي الحق عقل ، فانا زوج هذا الرجل انجلو ، وقد عرفني معرفة الزوج زوجه ، وهو يظنني ايزابلا اتت تدفع فدية أخيها ، وايزابلا اشرف من ذلك كثيراً ، ولكنني أنا ، لانه زوجي ولا حياء في الحلال ولا عار ، ولاني أحبه وقد قلاني بلا سبب وهو زوج شرعي لي ، لذلك جئته في جنح الظلام ، بناء على سابق اتفاق بينه وبين ايزابلا ، التي وعدته لكي تنقذ أخاها . ولم تعده بذلك الا بناء على تدبير بواسطة الكاهن الحكيم . وبموجب هذا التدبير ، وعلى أساس الزوجية المشروعة أنا التي كانت معه وهو يظن اني ايزابلا ، والآن أيها الدوق المحترم

انتشلني ، وانصفني ، والا سقطت في وهدة العار ، وتدنست حياتي ولا ذنب لي الا حبي زوجي وأمانتي له

فجن انجلو لما سمع هذا الكلام ، ورأى ان الشكاية عليه فوق ما كان يحلم . وفهم الآن انهم خدعوه وانه لم ينل من ايزابلا . وان مريانا صارت زوجاً شرعية له بحق ، الا اذا انكر وعجزت عن الاثبات . فرأى انه كان مخطئاً في أحكامه ، مغروراً في آماله ، ممسوكا باعماله . فتظاهر بالاباءة ، وصاح قائلا :ـ

ما أغرب ما نسمع في هذا الصباح ياسمو الدوق ، لست أرى هاتين المرأتين الا آلة بيد داهية محنّك ، نصب لي شركا مخيفاً . فيلزم كشف ما هنالك من خطط ومكايد

الدوق : ـ ونحن من رأيك . واني ارغب في ما ترغب . واصدّق ما تقول . أولا لتجلية الحقيقة . ثانياً صوناً لعرض ابن العم المبجل أعز الناس علينا ، وأقربهم الينا ، الذي نثق به ثقتنا بانفسنا . فيا ابن العم العزيز اللورد انجلو تولّ انت أمر التحقيقات ، يساعدك في ذلك مستشارنا الخاص اسكالوس ، وبما اني مضطر الى التغيب برهة لأمر ما ، فاترك القضية لكما لتسيرا بها الى النهاية ، وسأعود اليكما لأرى ما اتممتما ، واثقا اني حين أعود سينتهي الأمر على ما نروم قال الدوق ذلك ومضى . وهم يقولون له ، «وهو كذلك» . رداً على قوله متى عدت انتهى الامر على ما نروم .

صحب الدوق بعض افراد الحاشية ، وظل الاكثرون في الساحة يرقبون سير هذه القضية المدهشة ، التي لم تسمع فينا أغرب منها . فتنفس انجلو الصعداء كأن جبال حمالايا قد ازيحت عن صدره . ورأى ان الامر عاد الى يده ، فيمكنه تصريفه في ما هو في مصلحته . فرمق الفتاتين بنظرة ممتزج فيها الحقد

والتشفي . كأنه يقول لهما : خدعتماني وشكوتماني ، فلأذيقنكما الامرّين فانتظرا. بل كان في نفسه ما هو اكثر من ذلك . ولا تحامل في الدنيا كتحامل الطاغية على مخادعه المحكوم . فلا يقدر قلم ، ولا ربّ قلم ، أن يصف تطور الحال لما مضى الدوق ، والتفت انجلو الى الفتاتين وقال: — يالكما من تاعستين شقيتين ! تريدان ان تمسا كرامة يطال النجم ولا تطال . ألم تعلمي يا ايزابلا ان وظيفتي وسمعتي وماضيّ وثقة الدوق بي ، تحول دون افترائك؟ قال ذلك كأنه يذكرها بما قاله لها البارحة لما قالت له اني اشكوك ، فاجابها ومن يصدق كلامك ؟ ان وظيفتي وسمعتي وماضيّ وثقة الدوق بي تحول دون مرادك ، وتحول الامر ضدك فاعاد العبارة على مسمعها الآن تشفيا ونقمة . ثم التفت الى الراهب بطرس ، وقال له اذهب وفتش عن ذلك الاب المنافق الذي زعمتا أنه قادهما الى الشكاية علي ، ومتى وجدته فأت به اليّ فنرى ما يكون من أمره . فانه هو الذي نسج البرُد التي منها فصلت هذه المهزلة ، ولا بد من أن السجان يعرفه فيدل عليه . اني سأنتقم لنفسي من كل عدو خؤون ، واداوي جرحي بيدي قاضيا على الزور والبهتان . وارد كيد الكائدين في نحورهم ، ولن اهمل هذه القضية حتى اكشف عن سرها فان العدالة تقضي بذلك

(١) فسلفة كل زمان

من يقدر أن يصف موقف ايزابلا ومريانا أمام انجلو ؟ قد ذهب الدوق واختفى الأب لودويك ، وصار الخصم حكما . فماذا تفعلان ؟ . وكيف انتهى بهما الأمر هذا المنتهى ؟ يقولون انها اغرب قضية رأتها فينا . بل هي اغرب قضية سمع بها القوم تحت سماء اوربا ، الخصم حكم ، والمعتدي عليه يعاقب ،

والحق يداس، والصدق يحتقر، والبهتان يسود . وظهر لأول وهلة أن الدائرة ستدور على ايزابلا ومريانا البريئتين . على اني أرى أن واضع هذه الرواية شكسبير — أراد ان يعطينا — ليس صورة غريبة ، في هذه الرواية ، بل أن يصوّر لنا صورة حقيقية ، لما هو جارٍ في الدنيا في كل جيل . حيث الدموع ساجمة سخينة في محاجر المظلومين وليس لهم من راحم . هكذا قال سليمان الحكيم « ان المظوم في يد ظالمه وليس له من راحم ، ومن يد ظالمه قهر » وهكذا قال افلاطون في مطلع الكتاب الثاني من جمهوريته. هكذا حدث في اوربا في الاجيال المظلمة. وهكذا حدث في اسيا وفي افريقية في التاريخ القديم وفي غير التاريخ القديم. وكثيراً ما نرى البارّ يبيد في بره ، والباغي يسود في شره . وصديقاً يعاب ، ومجرماً يتسنم منصة الاحكام . ويقوم المختلس على المنابر خطيبا. ويغمض عينيه متظاهراً بالفضيلة والتقوى، وهو قد اقتنى الاملاك باموال الارامل والأيتام ، ولسان حاله يقول : حدث سهيل بن عباد قال :

والصدق ان القاك تحت العطب لا خير فيه فاعتصم بالكذب

بمثل هذا كان يوصيني أبي

اقول : ولو وقف شكسبير عند هذا الحد ، وانتهت الرواية هنا لقضي على ثقة الانسان بالله ، ولكانت روايته جناية على الانسانية لانها تقتل أعمق واقدس شعور في نفس الانسان البريئة . ولكن لا شكسبير ، ولا هذا القلم ولا افلاطون، ولا صادق في خدمة هذه البشرية يرتاب في حسن الختام. فقد جعل الله لمخازي الاشرار حداً . كما جعل لمحن الصديقين نهاية ، ويسّر لهم من مآزقهم مخرجا . فمن ثم تتراءى لك شهادة التاريخ للعدالة القصوى والحكمة الجلّى . هذا هو خيال الشعراء الذين لمسوا الجمال الكمالي . وهذا

هو تصوّر الفلاسفة الذين اصابت مراميهم في التفكير في أمر هذا الوجود وهذا هو يقين الانبياء الذين تكشفت لهم الحقيقة بما في نفوسهم من استمساك بالجمال، فرأوا العواقب وكانوا منذرين. واليك بعض اقوالهم

الشاعر: وعند التناهي يقصر المتطاول.

النبي: لا تستقر عصا الاشرار على الصديقين — في مزالق جعلتهم —

الفيلسوف: العدالة تسود والظلم الى البوار:

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج

فاصبر قليلا فبعد العسر تيسير. هذا هو النص الصحيح لفلسفة كل زمان. وعليّ ان ابين صحة ذلك في هذه الحكاية تشجيعا للمخلصين.

نظرة الى المشهد. فذلك المحتال الباغي الذي يتبوأ المنابر خطيبا وواعظا، وهو قد احرز الثروة وجنى الاموال من طرق خفية منكرة، ولم يدّخر وسعا في التستر والرياء، ليربح الرأي العام، زاعما ان حيلته تنطلي على الجمهور، وانه سيموت مستوراً وهو خائن مختلس غدّار. فجعل وعظه واحسانه ستراً لما جنى في سره وربك ليس بغافل عما يفعل المراءون. هذا الغدار الباغي يدس ويكيد. ولمن؟ للذين يعرف ويعترف سراً انهم ابرياء. ولكن ليس مكتوم لا يستعلن ولا خفي لا يعرف. فصبراً ايها المغرور صبراً. ان يوم مناقشة الحساب قريب. وستعطي الجواب عما جنيت بنفسك وبنسلك انجلو — يامن يحيا في كل عصر، وفي كل مصر وفي كل افّاك زنيم، وفي كل شيطان رجيم، ويظهر على كل مسرح، في كل عاصمة، في كل أمة، في كل جيل، مثلا للمرائين المخادعين الجارحين.

ان الله في مزالق جعلك يا انجلو. فتهيأ للانحدار الى هوة بعيدة القرار

(٣) تفاقم الخطب وتزايد البرهان

انجلو الجاني على العرش . اسكالوس الى يمينه . يحيط بهما الكبراء والاعيان . وجوقة الموسيقى تعزف اطيب الالحان . والكتّاب جلوس . والحجاب وقوف . والضباط رهينة الاوامر . والراهب بطرس الى جانب التاعستين الشاكيتين والمهددتين . وراءهما لوشيو الماجن العديم المبدأ والحقيقة ، وقد غاب الشاهد . وضاع الحق . ورفع الباطل عقيرته . وقبض المجرم على أعنة الأحكام

هذا ما نراه أمامنا . فماذا تلا ذلك ؟ الآن تبتدىء الرواية وليس ما مرّ بك إلا مقدمات .

قال المستشار اسكالوس يخاطب لوشيو :—

ألم تقل يا لوشيو انك تعرف ذلك الراهب المدعو لودويك ؟ وقد قلت انه لم يكن أميناً ، أليس كذلك ؟

لوشيو :—بلى يا سيدى . ليس فيه أمين إلا ثوبه . وقد قال في سمو الدوق اقوالا سفيهة .

اسكالوس : — امكث هنا ريثما يحضر فتكون شاهداً عليه بما فيه فتثبت عليه ما فرط به بشفتيه . فيظهر لنا ان لهذا الراهب شأناً

لوشيو : — وشر في انه مخلوق غريب الاطوار . وليس له نظير في فينا ، ولا في كل اوربا . وسأشهد عليه الشهادة القاضية ، فلا ابقي له أصلا ولا فرعاً

اسكالوس : — ادعوا ايزابلا لأحقق معها . وليأذن لي سيدي انجلو

بفرصة خمس دقائق ، اخلو بها معها ، فاقودها الى الاعتراف بحقيقة الواقع بلا تشويه ولا تمويه

لوشيو : لا اجدر من السيد اسكالوس باستنطاقها . ولو انك انفردت بها خمس دقائق لحصحص الحق وزهق الباطل . ولكنها في الحضرة تخجل . فانهن لا يكشفن قلوبهن إلا في الخلوات . فان نورهن الكاشف هو ظلمة نصف الليل

اسكالوس :— تقدمي الى هنا أيتها الفتاة . هوذا امرأة تكذّب دعواك وتقول ان انجلو لم يمسك بسوء . وتقول أنها هي التي كانت معه ليلا . وانك انت كنت بعيدة . فدعواك عليه اذاً ساقطة

وقبلما فتحت فاها بكلمة انتشرت اشاعة بين القوم ، انتشار النار في الهشيم ، وقد اولتها الألسن قائلة «جاء جاء» . أي ان الاب لودويك قد ظهر . فامتدت الاعناق ، ورمقته الانظار . ووثق الجميع أن في ظهوره حلّ المعمّى . والجميع راغبون في حل معضلات هذه الرواية المعقدة . وقد تتبعوا فصولها ورغبوا في معرفة تطوراتها .

فأمر اسكالوس باحضار الاب لودويك ليسمع كلامه . ويرى ما يكون من أمره . وقد أجمع الخبراء على أن الفعلة هي فعلته . فخاطبه اسكالوس بما معناه : — تقدم يا أب لودويك . فتقدم . وأحاط الجمهور به رغبة في رؤيته وسماع دفاعه . فرأوا فيه ذلك الرجل الرصين الوقور الرابط الجأش .

اسكالوس : — أأنت الذي ساق هاتين المرأتين الى إهانة عظمة اللورد انجلو نائب سمو الدوق ؟ فقد أقرتا بانك انت الذي سقتهما .

فرفع الاب لودويك رأسه بشيء من الخيلاء غير قليل . وقال بلهجة

التهكم والانكار : — ما هذا الفشار ؟ احترم مجلسك أيها المستشار . ويجب على دوقك أن يحترم نفسه أيضاً . فان الدوق مسند العدالة ومرجع الأحكام؟ فانه هو ، لا انت الذي يجب أن يسألني ويسمعني .

اسكالوس : — نحن نمثل الدوق . وهو يسمعك بنا وقضاء الشريف انجلو هو قضاء الدوق نفسه ، وعدله عدله . فقد ولاه ، واطلق يده . فتكلم كأنك في حضرة سمو الدوق .

فازداد الراهب جرأة وشموخاً . وبدت على محيّاه ملامح الانكار والاحتقار . وصاح قائلا : — يالك من نفوس تاعسة ! . وقد أتيتما بي الى هنا لأنقذ الحمل من الذئب . الدوق غائب . والخصم حكم . فدعوا كما ساقطة أيتها الحزينتان . لان الشرير قابض على أزمة التحقيقات . فأي انصاف ترجوان؟

فصاح لوشيو : — أرأيتم ؟ هذا هو الرواغ الافاك . هل صدقتم ما قلته عنه ، انه كان يرمي مولانا الدوق بقارص الكلام (والواقع ان لوشيو لا الراهب ، هو الذي كان يشتم الدوق) فاسمعوا الآن وعوا .

فالتفت اليه اسكالوس وقال : — يالودويك إنك راهب غير محترم ولا مقدس . لانك لم تكتفِ بانك ورّطت هاتين الغبيتين في شكوى هذا الندب العظيم ابن عم سمو الدوق المعظم ، ووصفه بعدم العدالة ، فتجاوزته الى شتم مولانا الدوق المعظم . ووصفته بعدم العدالة .

فقال الراهب ، واية عدالة ترى في جعل الخصم حكماً؟

فصاح اسكالوس بالمحضر والسجان قائلا اقبضوا على هذا الكاهن ، وجروه الى التعذيب ، وسنريك يا هذا وخامة عواقب من يتطاول على ارباب المناصب السامية . فشمخ الراهب بأنفه الى العلاء ، كأنه بلغ النجم واعلى ،

ولاح للحضور انه لا يعبأ بامر الدوق ، ولا بمن هو اعظم قدراً ، وصاح باسكالوس قائلا :— قف عند حدود وظيفتك ، يا اسكالوس ، ولا تتجاوزنها الى ما ليس من اختصاصك ، ولا تستعض عن العدالة بالعنف والاستبداد فان مولاك الدوق نفسه لا يسيء اليّ باكثر مما يسيء الى نفسه ، لاني لست عبده ، ولا من رعاياه ، ولا هو مولاي ، بل لست انقص عنه رفعة وجاها ، فانه ليساويني بنفسه ، واني انما اظهر بهذا المظهر الوضيع لامر قضت به علي مصالح سنية ، فجئت ابغي الاصلاح حيث ارى العدل مهدّما والظلم مخيما ، والفساد قد طما ، والبريء مغنما ، وقد بلغ طغيان الظالمين قبة السماء ، فقد بلغ السيل الزبى ، وعلا الماء الزبى ، وكاد الامر ان يذهب سدى ، فالشرائع كشرائع ، أمام الجرائم كجرائم ، لها حكم نافذ وشكل واحد ، ولكني ، أرى المخالفة محمية والعدالة مقتولة ، والحق مدوساً ، والبريء منحوساً ، واصبح القانون كدمية في صالون الحلاق ، أو كلعبة في مقثأة لتخويف الطيور ، ولا روح فيه . بل هو آلة في أيدي أرباب الغايات

اسكالوس :— أفتروم أن تتطاول الى اهانة الامة باسرها ، ياراهب؟

فصاح الراهب :— وأية أمة تعني ؟ لا خير في أمة يسقط الحق في ربوعها وترتفع رايات البطل والبهتان تحت سمائها ، امة كهذه ، ان جاز ان ندعوها امة ، هي صائرة الى الدمار ، ان غيري يرهب سجنك وعذابك ، وسواي يرجف خيفة تهديداتك ، أما انا فحسبي الانتصار للحق وإغاثة الابرياء

اسكالوس :— ما هي دعواك عليه يالوشيو ؟ أهذا هو الرجل الذي تقول انه شتم الدوق

لوشيو : — نعم نعم ، هذا هو بعينه ، تقدم يا أصلع ، تقدم يا اصلع اتذكرني ؟ او تذكر كم كنت انهاك عن القذف بحق الدوق المعظم فلم ترعوِ وقلت لك انك ستسأل عما تفوه به ، فيالك من قذّاع لذاع ، ويالك من قذاف نداف

لودويك : — اني اذكرك ، واذكر كل كلمة خرجت من فيك وانك كنت تشتم الدوق ، وها قد دنا وقت مناقشتك الحساب وسترى انك مسؤول بكل كلمة فهت بها قبل نهاية هذه الجلسة .

فقهقه لوشيو بوقاحة (استخفافاً واخفاء للحقيقة) وقال للراهب : — أما انت الذي قلت في مولانا ، ياراهب ، ما لا يقال ، وقلت انه احمق ، وغر جبان ، ويكفي دليلا على صحة كلامي انك الآن تشتمه أمام هذه الهيئة الجليلة الشأن . فاذا كنت في هذا الموقف تجرأ على الدوق ، فماذا يكون منك في الخفاء ؟

الراهب : افتقايضني الشخصية يالوشيو ؟ أو تنسب الي ّما كان يقذفه فمك ؟ أفهذه اوضاع الرجال ؟ . كان عليك ، لو انك رجل ، أن تثبت على كلامك ، وهنالك كنا نرى من هو الصادق ومن المزكى . أو تزعم انك تخيفني بانك تتسلح بالرأي العام ؟ فانت تتوكأ على قصبة مرضوضة ، وسأريك حماقتك وجهلك في الحال ، فلما سمع لوشيو من الراهب هذا الكلام ، عمد الى الهزل والمجون وأراد ان يضحك الناس عليه فقال اصمت يا اصلع ، اصمت يا اقرع ، ألم افرك انفك لما تطاولت على الدوق .

الراهب : ـ بل انا الذي انكر عليك شتم الدوق ، اما انا فيستحيل ان اذمه ، لاني اغار عليه غيرتي على نفسي ، افهمت يا احمق ؟ فاني احبه حبي نفسي

لوشيو : ـ انظروا كيف يراوغ ، فانه بعد ما اهان الدوق يدّعي الآن انه يحبه ، فقد سباني حبك يا اقرع يامكار يامهذار

اسكالوس : ـ افشخص كهذا يطاول ؟ جروه الى السجن ، الى القيود الى التعذيب ، وكموه فلا ينبس ببنت شفة

فلما دنا منه احد الشحنة صاح به الأب لودويك بلهجة الآمر : ـ حذار ان تمسني يارجل ، فدهش الناس لانه كان يتكلم بعظمة لم يألفوها في الكهان فقال له لوشيو الى متى شموخ الانف يارويهب ـ يافاجر ياماكر ، امش يا اقرع امش ، ويلزم ان انزع عنك هذا البرقع اولا ، فأري الناس قبح صورتك قال ذلك ومد يده ، وضرب الراهب على الرأس المستعار ، وظهرت الحقيقة فاذا ذلك الكاهن هو الدوق فنسنتو نفسه

(٤) تحول مجرى الامور

ظهر وجه الدوق في ثوب الكاهن ، فقال فوراً يخاطب لوشيو : ـ انت اول سافل صيرني دوقاً : فجمد القوم كانهم حجارة ، وصعق انجلو ، وبهت اسكالوس ، ولا تسل عن انفعال المرأتين ـ ايزابلا ومريانا ـ ولاسيما مريانا التي كانت تتأوه وتتمنى ان ترى الدوق وتخبره بحقيقة انجلو ولم تكن تعلم ان الكاهن هو الدوق وانه يعرف من امر انجلو ما تجهله ، فنشأت في نفسها انفعالات جمة مؤلفة من استغراب وفرح وارتياح وندم وخجل وتأدب وغير ذلك ، فان امواج الاوقيانوس تحصى وانفعالات فتاة كهذه ، لدى مفاجأة كهذه ، لا تحصى

الآن حصحص الحق وتحولت مجاري الامور فارتخى من كان متشدداً

وتشدد من كان مسترخياً واطمأن من كان خائفاً خائراً وذعر من كان معتداً مطمئناً فنظر الدوق الى لوشيو وقال :

للراهب كلام معك يالوشيو

ثم حول وجهه نحو انجلو وقال له : هل عندك من حيلة ـ او دفاع لتغطية جرمك او لتخفيفه ؟ ان كان عندك شيء من ذلك فقل دون تردد

فامتقع وجه انجلو كأنه امام الجلاد وهذه المرة تكلم باخلاص المائتين قال :— مولاى يارب العدالة ومنهل الحكمة والسيد المطاع . اذا انا حاولت ستر جرمي او تخفيفه فانما اضاعفه بتلك المحاولة واكون اكثر حماقة اذا زعمت اني اخفي حقيقة حالي عن عينيك الفاحصتين . فقد تمثل لخيالي ماضيّ النجيس ولا سيما حوادث الاربع والعشرين ساعة الاخيرة . الملأى بفظائع تقشعر منها ابدان الملائكة . ولقد عرفني سيدي الدوق كما اعرف نفسي . فليس لي رغبة ولا التماس . إلا امراً واحداً ارجو ان تنعم علي به . وهو ان تعجل في اعدامي لاراحتي من آلامي . فالاعدام استحق واياه اروم

من يمكنه ان يصف المرأتين الواقفتين في الحضرة كصنمين بل كتمثالي منرفا وفينيس اللذين يمثلان الحكمة والحب ، ولا سيما ايزابلا التي كانت تتأوه رغبة في اطلاع الدوق على حقيقة حال انجلو وما فعل معها وها هو عالم بالواقع وقد دارت الدائرة على الظلوم فلهذه المفاجأة وهذا الانقلاب اثر في نفسها غير الاثر الذي حصل في نفس انجلو ذاك كرهت نفسه الحياة وهذه طابت لها الحياة ذاك تجلت له آثامه وشروره وهذه تجلى لها جمال فضيلتها وحسن صنعها . ذاك انتقل من النعيم الى الجحيم وهذه انتقلت من الجحيم الى النعيم وحق فيها قول الحكيم « شهوة الصديق متممة » فكانت تشتهي

اطلاع الدوق على واقعة الحال وها هو مطلع فخفق قلبها خفوق السرور في وسط احزانها العميقة فشق نور عزائها ظلمات احزانها ولسان حالها يقول :—

هنـاء محا ذاك العزاء المقدما فما عبس المحزون حتى تبسما

ثغور ابتسام في ثغـور مدامع رفيقان لا يمتاز ذو السبق منهما

ولاول مرة في حياتها اخترق شغاف قلبهـا سهم نظرة من عيني كاهن الامس ودوق اليوم. لما حدجها بنظرة ملؤها الحب والعطف والتحنان . كانه يقول لها : قد حان وقت جزائك فاطربي : فانفتح قلبها الآن للحب الحقيقي وقد فهمت الآن بمثل محسوس ملموس ان « الله محبة » فقد كان عطف الدوق عليها وحبه لها مجلى الحب الالهي حتى انها لم تكن لها حرية لدى نظراته بل استسلمت

ولا نغفل عن لوشيو ذلك المزاح المهرّج. فانه ما زال كما كان . إلا انه هذه المرة كان يدون الحقيقة بلسان مازح كقوله : فصل ا كفانك يالوشيو فقد هتكت الأستار ، وبرزت الاوزار . فقد كنت تضحك على الأب لودويك والشيطان يضحك على كتفك فكان يرتجف كقصبة تهزها الرياح العاصفة ، وبدت في سحنته ملامح الذعر الشديد .

(٥) قضاء انجلو

ثم عطف الدوق علي مريانا وخاطبها بلطف جميل قال :— تقدمي الى هنا يامريانا : فتقدمت . فالتفت الى انجلو وقال :— أتعرف هذه السيدة يا انجلو ؟ قال : — من كل بد أعرفها يامولاي .

قال :— وهل ارتبطت معها بعهد الزواج ؟

قال : — نعم ارتبطت . ولقد تمكن الرباط على ما بلغ ذاتكم العالية .

قال :— الدوق أو مريد انت اتمام ذلك رسمياً ؟

قال :— الامر أمر مولاي الدوق

فنادى الدوق الاب بطرس ، وأمره أن يذهب بانجلو ومريانا ، ويعقد له عليها حسب الطقوس الكنسية . ثم يعود بهما الى حضرة الدوق عاجلا . ففعل هذا ما أمر به في الحال

وشغل الدوق الوقت ريثما عادوا ، بمحادثة ايزابلا قال :— يا ايزابلا ، قد تم جهادك ، وحان وقت اكليلك لانك فزت في المعترك الأعظم . ولقد كان انتصارك اعظم جداً مما تعنين ، ومما تبغين فهذا الدوق يسمعك وينصفك وانت ترين أنه على بينة من امر انجلو ، كما كنت تتمنين وسترين بعينيك عاقبة المفسدين .

ايزابلا (مطرقة برأسها الى الارض خجلا وتأدباً) :—

مولاي اني آسفة جداً ، على ما حمّلتك من جهود ومشقات وأنا غير عالمة انني اجني جناية هذ مقدارها بمعاملة سمو الدوق المعظم هذه المعاملة . فلم يبق لي إلا أن اشكر الله جلّ وعلا وأن اشكر ذاتكم العالية ، صانها رب البرية . على ما أبديت نحوي من العطف والاحسان .

الدوق :— أنا عالم ان مقتل اخيك يزعجك . وكأني بك تقولين في نفسك :— اذا كان هذا هو الدوق فلمَ لم يظهر في الوقت العصيب ، ويحل دون اعدام كلوديو ؟ اني أعترف لك بهذا الحق يا ايزابلا . ولو عرفت السر في الامر لعذرت الدوق . وستعذرني . فاني لم افعل نحو اخيك الا ما هو أفضل . ولكن ما حيلتي وقد صار ما قد صار . ؟ فقد سبق انجلو فأمر باعدامه قبلما

اعرف، أو خلافاً لما كنت اتوقع. فطوبى لأخيك، لانه الآن في حال افضل جداً مما كان، فانه يتمتع براحة اكمل، وحرية أوسع، وعيش أسمى

هذه كانت الالفاظ التي تبادلاها. ولكن أي قلم، بل أي لسان، بل أي عقل، وأية لغة، يستطيع أو تستطيع اعراب امواج كهربائية الحب التي كانت تحمل الفاظ الدوق الى قلب ايزابلا، ورنة الصوت، ووقع النظر، والابتسام. تلك ملابسات الكلام تشعر بها القلوب. وكل حب صورته الاقلام فهو صغير. وكل حب وصفه اللسان فهو ناقص. فما بين الدوق والعذراء لا تقوى على تصويره الاقلام، فاتركه لخيال القاريء اللبيب فاعظم الحب ما انعقد بين الشهامة والعفاف. بين قلبين طبعا على حب الفضيلة وخدمة الحقيقة والانسانية. والصلة التي بين القلوب الكريمة هي فوق ما اشتملت عليه معاجم اللغة

(٥) مأزق أنجلو وشهامة المرأتين

كان النقيضان في كفتي ميزان، ترجح الواحدة بارتفاع الاخرى. هذا كان حال انجلو والمرأتين، مريانا وايزابلا. فارتفاع كفته رجحت كفتهما وافتضاحه شرفهما، وحرج موقفه منحهما أثمن الفرص، لابراز اجمل مجالي الشهامة كما يتضح لك مما يلي. فالما عاد الاب بطرس بانجلو ومريانا وقد اتم لهما واجب القران سأله الدوق :— هل اتممت كل شيء؟. فاجاب بالايجاب.

الدوق: — والآن يا انجلو انت زوج مريانا الشرعي، وهي امرأتك

انجلو : — نعم يامولاي

الدوق :— فليحضر الجلاد ابهورزن حالا ويقطع رأس انجلو، كما

قطع رأس كلوديو . وبنفس البلطة التي قطع بها ، وليحضر رأسه ، كما حمل رأس كلوديو الى انجلو تماماً . فكما فعل انجلو يفعل به . عين بعين وسن بسن وقدر بقدر (وفي الاصل الانجليزي Measure for Measure) انك مجرم يا انجلو . فوجب ان تعامل بالمعاملة نفسها التي عاملت بها كلوديو . لانك ارتكبت الجرم الذي به حكمت . فمن فمك تدان ، وبحكمك تحد

هنا دخلت حوادث الرواية في طور جديد . فقد كانت المفاجأة فوق ما يمكن مريانا ان تحتمل لانها لم تكد تنتهي من هجر انجلو وكنوده ، وما صدقت ان اعترف بها زوجا ، وقد فرحت وشكرت الله على فوزها ، حتى طرق سمعها حكم الدوق باعدامه . فتقدمت من سموه ورفعت اكف الضراعة تقول له : —

حاشا مولاي ان يهزأ بي . افلكي تجعلني ارملة امرت بقراني ؟ لست اصدق ذلك ، فارجو عفوك يا اميري . ولو كنت تقصد اعدام انجلو فلماذا لم تفعل ذلك دون اتمام مراسم الزواج . ذلك كان اسهل علي فما كان أغناك عن زيادة آلامي ؟ حسبك انه مجرم فتعدمه بجرمه . وتتركني في حال ارضاها ويرضاها الله لي . أما الآن ، بعد قراني وسروري بفوزي تقتل زوجي ، وتجدد أحزاني ، فلا أرى في ذلك ما يتناسب مع الطاف مولاي الدوق الحنون . والا فما هي خطيتي وما هو جرمي حتى أصير عروساً ارملة في وقت واحد .

الدوق :— ان ما قلته يامريانا هو صحيح . انك لم تأثمي . ولكن اذكري ان انجلو — ظالمك — هو أيضاً ظالم العدالة والقضاء . فانا أعدمه بذنبه لا بذنب ارتكبته أنت . أما اني لم اعدمه قبل قرانكما فهو في مصلحتك ،

لانه لو أعدم قبلا لما كنت وريثة له . لانك لست زوجا شرعية . والاعظم من ذلك انه لو اعدم من قبل القران لحسبت زانية ، لانك صرت اليه ميلا باعترافك . فلهذين السببين امرت باجراء مراسم القران. ولست اسيء اليك فاني سأزوجك بعده بمن هو خير منه . فصاحت مريانا : لا لا يامولاي لست أرضى من قريني بدلا ، وان يكن خيراً منه ولست أريد له ألم الخيانة والغدر كما آلمني . اعني لا ارضى أن يسمع وهو حي اني أخذله واختار سواه بل أروم ان اكون أمينة له وافديه بحياتي

سيدي المحبوب رفقاً بالتي خانها الدهر وما كانت بغيا

الدوق :—

عبثاً تبغين رفقاً بالذي أصبحت رحمته عاراً علي

فتقدمت مريانا ، وجثت أمام الدوق لاجل حياة انجلو ، كما جثت ايزابلا في اليوم البارح ، أمام انجلو لاجل حياة كلوديو ، قالت

مولاي يا كنز الصلاح وكعبة — الآمال عفواً عن أثيم غادر

فاجابها الدوق :—

كفي التوسل والضراعة انني عما أردت اليوم لست بقادر

فحولت مريانا نحو ايزابلا عينين مغرورقتين بالدموع ووجهاً تجلت فيه ملامح الخوف والاشفاق ، ويدين ترتجفان جزعا واسى . قالت بصوت تقطعه رجفة الوجل: ـ ايزابلا الحنون عوناً . هذا هو يوم المروءة ياذات الكمال . فغوثاً ومدداً . لاتحرميني من مشاركتك في الاسى كما شاركتني في الشعور . اعيريني ركبتيك ، فقط ركبتيك ، فاجثي الى جانبي ، وارفعي

اكف الضراعة لسمو الدوق وانا اتكلم . وما عشت فلن أنسى لك هذا الفضل وهذه المنة .

الدوق : ـ عبثاً تحاولين حمل ايزابلا على مشاركتك في التوسل لاجل حياة انجلو . فانها ان فعلت فان طيف شقيقها كلوديو ليزورها في المنام ويزعجها

فصاحت مريانا بصوت مدنف يروم انقاذ حياة عزيز باقصى عبارة وابلغ معنى : ـ ايزابلا . عوناً . ركوعا الى جانبي . انقاذاً لبعلي وجبراً لقلبي . فخير الازواج ما انتشل من هوة الرذيلة والخيانة . وكلما كان اكثر ايغالا في الخيانة صار بعدها أصلح حالا وأوفر وفاء وأمانة وحناناً . فساعديني يا ايزابلا في خلق خير الازواج ، فلمثل هذا الموقف ولمثل هذا الزوج خلقت الشهامة .

فلم يسع ايزابلا بازاء وجه مريانا الشاحب ودمعها السجيم على وجنات زانها الكمال ، وقد ضربت مريانا على وتر حساس في قلب ايزابلا لما ذكرت الشهامة والامانة والحنان ، أقول لم يسع ايزابلا حينذاك الا اجابة ملتمسها فدنت منها ، وجثت الى جانبها ، ورفعت اكف الضراعة الى سمو الدوق ، تتوسل لاجل حياة قاتل أخيها والجاني على عرضها .

هل يمكن ملاك كريم ان يقوى على نظر تينك الفتاتين الشريفتين الجميلتين البريئتين جاثيتين تضرعان لاجل حياة الذي اساء اليهما اساءة انجلو ؟ وهل يمكن ملاكا أو انساناً ، يستحق اسم انسان ، أن ينظر اليهما بقلب جامد بارد كالحجر ؟ ان كان ذلك ممكناً فمع غير الدوق الشريف . فقد ذاب قلبه في صدره كالماء ، لما رأى ايزابلا راكعة ، وقد رفعت اليه انقى الاكف ضارعة بمن جثت أمامه البارحة فغدر بها . لكن الدوق لغرض في النفس تجلد

وتظاهر بالاصرار على عزمه . فلم تقف ايزابلا عند حد الضراعة بل انطلق لسانها بالاسترحام بفصاحة دونها فصاحة سحبان ، قالت

أيها المولى الجزيل النعم انت مشكور بقلبي وفمي

ان يكن انجلو قد اردى أخي ، ولم يرق لذلي ولم يرث لحالي وانا في مرارة الروح ونغص العيش ، استغيث فلا يغيث ، واضرع فلا يسمع ، مع ذلك فانا العذراء لا اقوى على رؤية بريئة كمريانا ، جاثية ضارعة باكية فاوصد دونها أبواب قلبي . فعفواً ياسيدي الدوق عفواً . لست أقدر ان أرى مثل صاحبة هذه الدموع خائبة . انني اصفح عن دم شقيقي ، واحسب انه قتل بذنبه . فدع قاتله يعيش . ولتكن حياته هبة منك لمريانا بشفاعة من اعدمها الشقيق الوحيد . وليعلم الرجال ان فينا من المروءة وكرم النفس فوق مايزعمون . وقد يكون انجلو مخلصاً في اعدام أخي طبقاً لاحكام الشريعة ، وان يكن قد اخطأ بالنظر الي . واني أسامحه على هذا كما سامحته على ذاك . ولا أراك ترضى يامولاي بتكدير صفاء هذا النهار السعيد

فصاحت مريانا على الاثر صيحة استمطرت الدموع من عيون كل من حضر

سيدي المفضال انت المرتجى لشقي في الدياجي ولجا
ان يكن انجلو ساء صنعه فانعمن بالعفو ياكنز الحجى

فقال الدوق :—

انهضي عن ركبتيك عاجلا لست اختار التدني منهجا

فقد عفوت عن انجلو بتوسلات ايزابلا التي لم يرق لها انجلو ولم يرث لحالها فيعفو عن أخيها كلوديو . أنظر يا انجلو ان حياتك هبة ممن اسأت

أنت اليها . واعلم يا هذا ان فيهن من الشهامة والمروءة ما ليس في كثير منهم . فانهضا ياهاتان ، فقد قضي الامر الذي به تستفتيان . اهنئك يامريانا فقد فزت فوزاً تاماً .

(٦) اقدس المفاجات

نهضت المرأتان ، وفرح كل من حضر بما حصل .

عندها صاح الدوق : —

اين السجان ؟ ليتقدم الى هنا . فتقدم السجان وسلم ووقف ينتظر الاوامر . فقال له الدوق : كيف أعدم كلوديو قبل الوقت المعين بالحكم ؟ . فان الحكم عيّن اعدامه الساعة ٩ ولكن الاعدام حصل الساعة ٤ قال السجان ان ذلك الاعدام حصل بأوامر خاصة

الدوق : — هل معك أوامر رسمية من هيئة المحكمة بقطع رأس كلوديو ؟

السجان : — كلا يامولاي بل رسالة خاصة من انجلو بعد نصف الليل

الدوق : — فانت معزول اذاً . فسلم المفاتيح واخرج حالا انك غير أهل للوظيفة

السجان : — حلماً أيها المولى . فقد افتديت نفسي بفعل حسن . وهو انه قد مات عندي سجين اسمه راجوزين ، فقطعت رأسه وارسلته الى انجلو أما رأس كلوديو فلم اقطعه . وبذلك لم أخالف الامر في كلوديو .

وقد حفظت لسموكم ولايزابلا الفداة شخصاً شبيهاً بكلوديو تماماً في سنه وسحنته وقامته وخلقه ، واسمه برناردين . فاذا امرتم سموكم فاني أقدمه اليكم لتروه . فيكون وجوده تسلية لايزابلا .

الدوق :— كنت اوثر ان تبقي كلوديو . ولكن لا بأس دعنا نرى شبيهه فنستأنس برؤيته .

ويسوءني أيها النائب انجلو ان حاكما نظيرك تزلّ به القدم فيهوي الى درك السفالة بسرعة كهذه ، ويفسد الاحكام الى هذه الدرجة . فكم توسلت اليك ايزابلا ، وكم بكت ، فكان كل ذلك منها عبثاً

انجلو :— ويسوءني اني أعيش فأرى ما أرى وأسمع ما أسمع فلذلك أرغب في تجرع الكأس التي تجرعها كلوديو .

فنزل الدوق عن العرش . وشخصت اليه الانظار . ووقف الى جانب ايزابلا . وكادت دقات القلوب ان تقف ، لانهم كانوا حائرين في ما يريد أن يفعل .

وكان السجان قد أتى ببرناردين منقباً فامسك الدوق بطرف النقاب . ونظر الى يزابلا باسما واماط النقاب عن محيا الرجل قائلا : —

« هذا صداقك يا ايزابلا »

فاذا به كلوديو شقيقها

وقد مرّ بك أن الاب لودويك هو الدوق . وانه ذهب الى السجن ليلا . ودّبر ما دّبر للابقاء على كلوديو بالرغم من أوامر انجلو الجائرة . فلما وقفت أمامه السيدتان تشكوان بعث الى السجن فجلبوا كلوديو والسجان وكان كلوديو ملثما اخفاء لحقيقته . فلما حان وقت اعلانه أومأ الى السجان أن يجلبه

فلما رأته ايزابلا صاحت واشقيقاه — ووقعت على عنقه تقبله وتغسله بدموعها . وبكت وبكى معها جميع الحضور فرحاً . ثم اندفعت الى الدوق

تقبل يديه وتقول له اني عبدة لك حتى الممات

فقال لها الدوق :—

ان السيدة التي تجلس على عرش قلبي تجلس على عرش فينا . فقد كان من اغراض تخفي أن اجد الزوج الفاضلة . وقد وجدت بك الضالة التي كنت انشدها . وقد اثبت الخبر الخبر . فهاتي يدك أيتها الحبيبة

فشتان بين مراودة انجلو اياها لما وقفت امامه تتشفع بكلوديو ، وبين جهر الدوق يحبها على ملأ من الناس . ثم قال الدوق :— قولي انك لي فتكون حياة شقيقك كلوديو هبة واعفو عنه . فصاحت باكية انني لك . ولك وحدك . انت ديري وملاذي فوداعاً ياسنت كلير الى الأبد . مدت ايزابلا الى الدوق ساعداً مجدولة كسبيكة من الزبرجد . وقد صبغت وجنتيها حمرة الخجل ، والخجل اجمل حلي السيدات ، وابلغ الدلائل على العظمة وسمو الفطرة . وقد زادتها الثياب السوداء جمالا . وراع الحضور ما توالى أمامهم من المفاجآت . فامسك الدوق يدها بيمناه ، وطوق عنقها بيسراه ، وقبل جبينها وعينيها وأعلن للملا أنها دوقة فينا . فصفق الجميع طويلا وصاحوا فلتحي دوقة فينا . وللحال أمر الدوق الاب بطرس ان يعمل لكلوديو وجولييت ما عمل لانجلو ومريانا . وكان الاب بطرس قد تهيأ لذلك . فاوقد الشموع ، واوقد البخور ، وفتح الانجيل ، وصدحت جوقة الترنيم حوله باناشيد الافراح ، ووقف الدوق واركان الدولة حوله حاسري الرؤوس ، وصلى الاب بطرس صلاة القران ودعا للعروسين بالبركة ، وانجلو رافع يديه الى العلى يقول «آمين» . ثم تقدم الدوق ، وهنأهما وقدم للعروس اثمن الجواهر هدية ، وولى كلوديو على ادارة املاك الدوق الخاصة . وعين له راتباً شهرياً . وجلس الدوق على

العرش ، وقد رمقته الانظار والقلوب . وابتهجوا بحسن درايته ، ولياقة ادارته . ومهما يكن من امر الحاكمين فان مباغتتهم الرعية في ما هو لخيرها هو الذي يسود قلوبها . فملك قلوب القوم ما رأوه من اميرهم في ذلك الصباح

(٧) مناقشة لوشيو الحساب

قال الدوق : بقي علينا واجب آخر نحو دنيّ يتطاول على شخصنا ، فنعتنا بما في نفسه ، اين لوشيو ؟ فليتقدم. فتقدم لوشيو متثاقلا. ولأول مرة في حياته ظهر بمظهر الجد

الدوق :— أرأيت يالوشيو كيف كان فجرك بعد ظلامك ؟ أو عرفت كيف يكون صحوك بعد أحلامك أأنا الجبان السكير الفاسق يالوشيو أم من؟

لوشيو :— مولاي . لم يكن ذلك مني إلا مزاحاً . وان شئت تعليقي فها أنا (حاضر)

الدوق : يالوشيو . ان التعليق على أعواد المشانق جزاء زهيد على ما أبديت من وقاحة واستخفاف. استخفافاً بالحق، واستخفافاً بالمبدإ ، وبالشهامة وباقدار الرجال. فلأجزينك الجزاء العدل . أجبني أفلم تفخر بانك هاتك الاعراض؟

لوشيو : بمزيد الأسف أيها المولى . ليس للاشقياء فخر في سوى المفاسد والشرور .

الدوق :— وان البغيّ مرغريت هي عشيرتك ، ولك منها ثلاثة بنين

لوشيو : نعم يا مولاي

الدوق :— فسنعلقك يا هذا . ولكن أولا يجب أن يطاف بك في المدينة تشهيراً . وان نزوجك أولا بمرغريت التي لها عليك حقوق الازواج على أزواجهنّ

لوشيو :— عفوك يامولاي. لقد جعلتك دوقاً فلا تجعلني ديوثاً بتزويجك اياي ببغي . واذا كان ولا بد من ذلك فلا حاجة بك الى التشهير والشنق لان في الزواج ببغي كلا التشهير والتعليق بل فيه اكثر من ذلك

فضحك القوم من مجونه . وضحكت ايزابلا ، أول ضحكة في حالتها الجديدة . وسر الدوق جداً لما رأى دموع المسرة ذارفة على محاجرها . وهي غير دموع الحزن على ما أصابها من غدر انجلو . وذكرت للدوق ما كان من همة لوشيو ، وسعيه. ورجته أن يعفو عن حياته ، ويكتفي بتزويجه بمن هو أهل لها وهي أهل له .

فقال الدوق :— ثقي يا ايزابلا . وعن هذا أيضاً نعفو اكراماً لعينيك . أفيرضيك ذلك يالوشيو ؟

لوشيو :— وهل في الموت متخير . فلقد لقي كل منا ندّه الدوق ايزابلا. وانجلو مريانا . وكلوديو مرغريت ، وأنا التاعس مرغريت . فهذا يوم قران الأقران

الدوق : « وما زرعه الانسان فاياه يحصد »

ثم أثنى الدوق على السجان جزاء أمانته قائلا :

نعمّا أيها العبد الصالح والامين، كنت أميناً في القليل فاقيمك على الكثير.

واعتذر له اسكالوس على ما أبدى نحوه من خشونة وعنف . فاجابه الدوق : لا جناح عليك يا اسكالوس . فان حسناتك الكثيرة تشفع بجرمك الزهيد هذا . وانما كان يجب أن تقف عند حد العدالة ولا تتمادى في التحامل على راهب غريب مجاملة لحاكم مستبد

خطبة الدوق

والآن ياوزرائي وأعياني، وياجنودي وقوادي، وياشعبي المحبوب. أهنئكم بهذا اليوم السعيد، وأهنيء نفسي. هذا يوم تجديد فينا، وتشييد دولتنا على أمتن الأسس، على العدالة والحكمة والعفاف والشجاعة، أسس المدنية الفاضلة، والجمهورية الكاملة، التي استنبطها خيال افلاطون. وكل دولة لم تؤسس على العدالة والحكمة فليس لها حظ في الثبوت. وليس لشعبها، ولا لموظفيها قسط في السعادة والهناء. فان السعادة والهناء، في هذه الحياة ثمرة الانصاف والحكمة والعفاف. والدولة التي شيد صرحها على أسس الحكمة والحق فهي الدولة الخالدة.

وزرائي وأعياني!

انكم، ولا ريب، لقد تبينتم في حوادث هذا الصباح ما للافعال من الأثر في العواقب. فالفعل هو البذار والعواقب هي الحصاد. فازرعوا لأنفسكم خير الفعال فتجنوا منها أفضل العواقب، وتنجوا من شر العقوبات. فكل منا زارع أو غارس وجان، وهو هو الذي يعيّن حظه في الحياة

لقد تخفيت وأهملتكم يومين، لا لمقصد آخر إلاّ خيركم. وها أنا أعود لرعايتكم مستنداً الى ساعد العذراء. وساعد العذراء النقية أفضل مستندات الحاكمين. وبهذا الاعتبار الفت انظاركم الى ما في روايتها من الحقائق.

أولا تهذيب الفتاة وحسن اخلاقها

ما الذي سما بايزابلا من الدير الى العرش؟. أليس تهذيب عقلها، وارتقاء عواطفها، وجمال نفسها، وحسن اخلاقها؟. أترون لو أنها تحلت

باثمن الحلي فوق افخر الحلل ، ولم تكن لها الاخلاق الحميدة التي تجلت لنا في مواقفها الروائية ، افكان لها ما ترون الآن من الرفعة والمجد ؟ . أفليس جمال نفوسهن خير حلاهن ، أو ليست فضائلهن مراقيهن الى العروش ؟ . فاحرصن يابنات فينا على الخلق الحميد ، ان في ذلك فوزكن وسعادتكن الخالدة

ثانياً : أمضى سلاح بالطف الايدي

لقد اخطأ من زعم أن أمضى سلاح هو اقطع المرهفات باشد السواعد . فلقد رأيتم رأي العين امضى أنواع الاسلحة . بماذا سادت ايزابلا ؟ بماذا فتحت حصون القلب ، حتى أنها بحق دعيت « قنّاصة الملوك » ؟ . بماذا اقتنصت قلب انجلو أولا وقلب الدوق فنسنتو ثانياً ؟ أليس بفضيلتها ؟ أجل . أن جمالها قوة لا يستهان بها . ولكني لا أراكم تجهلون أن الجمال ، مهما يكن من أمره ، لا يستتب له الحكم والسؤدد دون الفضيلة والخلق الكريم . واجتماع محاسن الخلق والخلق هو أجلّ ما زان به الله بنات حوّاء . تأملوا ماذا كان من أمر ايزابلا لو أنها استسلمت لرغبة انجلو . فلو فعلت لخسرت كرامتها ، وخسرت أخاها ، وخسرت عرش فينا ، وخسرت قلبنا . ولكنها بوقوفها عند حدود الفضيلة والاباء ربحت كل هذه الاشياء . فالفضيلة يابناتي هي مرقاتكن الى المعالي . فلا تتعبنانّ في عروجكن الى المعالي بغير مراقيها

ثالثاً : لا يغترنّ موظف كبير ، أو ذو شأن خطير بحمايته من نتائج افعاله ، بحصون منصبه واسوار سمعته . فلا بد من ظهور الحقيقة عارية من كل ثوب وتمويه . فعلى رجالنا أن يعتمدوا الحقيقة والاخلاص في أعمالهم وفي أحكامهم . فبذلك وبه وحده يسعدون ويسلمون ويسودون . وكل سؤدد بغير الحقيقة هو سراب ، بل هو خزي لنفوس ارتابه . لذلك يغلب في نفوس

ارباب المناصب العالية صغارة النفس ونغص العيش بقياس عروجهم عن سنن الحقيقة واعتمادهم الزور والبهتان . يتجلى لكم ذلك في ترطم مسالك الدولة وتشويش أمورها وتعطيل مصالح العباد . والموت مع الحقيقة ولا الحياة مع الباطل المشين .

رابعاً : ولست أريد أن اصرف انظاركم عن مشاهد هذا اليوم الغنّية — ولا سيما نقطة مركز مشاهده ، وآي مجالي جماله . وهي الامانة ـ الامانة ـ الامانة . هذه الفتاة مريانا غدر بها الدهر وخانها خطيبها . غدر بها الدهر بغرق اخيها وجهازها . وغدر بها الخطيب في هجره اياها وافساده سمعتها . ولكنها رغم مصائبها ، ورغم تقلّب قلبه عنها ، ظلت أمينة له . ظلت مقيمة على عهده ، ظلت تحبه ولا ترضى بديلا . حتى لما سنحت لها الفرصة غنمتها . فصار لها اللورد انجلو بعلا شرعياً . انظروا كيف كانت أمينة له في أحرج مواقف حياتها . فامانة الحبيبات تخلق افضل الازواج .

فقد كانت مريانا من أفضل المثّالين . إذ أبدعت من هذه الكتلة أجمل الامثال . واني واثق أن انجلو ، وهو يذكر أمانتها وكريم اخلاقها ، سيكون بعلا أميناً لها . فقد اقتنته بأثمن الاثمان . فلها عليه الفضل والمنة . وعار على الرجال أن يكونوا دون زوجاتهم أمانة وشهامة . ولئلا يبقى في الحلق غصة وفي القلب حرقة ، من جراء ما خسرت بغرق ارزاقها وأخيها . فاني نعلن على مسامعكم اليوم أننا ـ نحن فنسنتو دوق فينا ـ نعوض على مريانا كل ما خسرت في غرق السفينة . فندفع لها ثمن أرزاقها مع الفوائد الفانونية عن خمس سنوات . واكون أنا أخاها وحاميها . فاعلم يا ابن عمنا انجلو أن مريانا ليست بلا نصير

فصاح الجمهور ليحي الدوق ولتحي المروءة

وختاماً

ياشعبنا ويارجالنا .

نظرة الى ايزابلا تتوسل اليّ . ولاجل من ؟ . لاجل ألد أعدائها ، وأشرس الجناة على كرامتها وعلى بيت أبيها . انجلو الذي لم يرق ولم يرحم. وقد خدعها وحنث بعهوده . ولولا تدخلي وحيلولتي دون مقاصده لكساها اثواب الحداد الحياة بطولها . لاجل هذا العدو الشديد المراس جثت تتوسل ورفعت اكفها ضارعة . فعلت ذلك وهي تعتقد أن أخاها مقتول . وإني باخفائي الحقيقة عنها أعطيتها أثمن فرصة لممارسة أشرف الفضائل ـ فضيلة الاحسان الى المسيء ـ فهل خسرت ايزابلا بذلك أو ربحت . فانسجوا على منوالها تشتركوا في مآلها .

فلتكن ايزابلا المثل الاعلى لبنات فينا فيسعدن وتسعد فينا بهن ، وترتقي الدولة كما رقيت ايزابلا .

والآن يا انجلو أحب مريانا . ويا كلوديو احفظ عهود جولييت . ويالوشيو لذ بمرغريت ، وإلا فالشنق نصيبك . أما انت يا ايزابلا فادخلي الى فرح سيدك . فقد نسجت بفضيلتك ثوباً من المجد قشيباً . فلك ما للبررة من مجد خالد وحظ سعيد .

فهرس الرواية

صفحة		صفحة	
٢	كيف تصيرين أميرة	٨٦	في السجن
٣	مقدمة	٩٠	أحوال السجون في اوربا
٥	شكسبير	٩٦	حال السجون
١٦	الفصل الاول (١) فينا واهلها	٩٧	ايزابلا في مطلع الفجر
١٧	انجلو واسكالوس	١٠٠	الفصل الخامس (١) سر فعلة انجلو
١٩	كلوديو	١٠١	فضيحة العاشقين ـ موقف فلسفى
٢٤	لوشيو	١٠٣	كفري ـ رواية جسشر
٢٧	سنت كلير	١٠٥	مناقشة الحساب
٣١	فلسفة هذه الرواية	١٠٧	انجلو في بيته
٣٧	الفصل الثاني (١) موقف الفتاة في الحياة	١٠٩	الاخ بطرس ـ من هو
٣٨	تصادم الغيرين	١١١	الشكوى
٤٣	العراك بين التعبد والهوى	١٢٢	الفصل السادس (١) نغمة جديدة في الطنبور
٤٨	إعادة الكرة المرة بعد المرة	١٢٦	فلسفة كل زمان
٥٣	مجلى الشهامة والاباء	١٢٩	تفاقم الخطب وتزايد البهتان
٥٧	الفصل الثالث (١) الاب لودويك	١٣٤	تحول مجرى الامور
٦٠	الشقيقان	١٣٦	قضاء انجلو
٦٥	أحرج مواقف العذراء	١٣٨	مأزق انجلو وشهامة المرأتين
٦٩	نقطة تحول	١٤٣	أقدس المفاجات
٧٤	التدبير الحكيم	١٤٦	مناقشة لوشيو الحساب
٧٨	مصادمة الكاهن ولوشيو	١٤٨	خطبة الدوق
٨٤	الفصل الرابع (١) في بيت مريانا		

DATE DUE

J. LIB.
18 FEB 1981

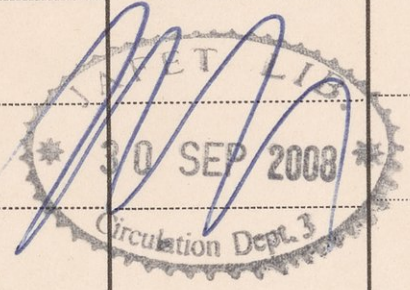

خباز ،حنا
قناصة الملوك او كيف تصير الفتاة: وه
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01038392